

کیسے

یجارب الجندي

بلا خودقة؟

قصص

سمير الفيل



المجلس
الأعلى
للثقافة

إهداء ٢٠٠٦

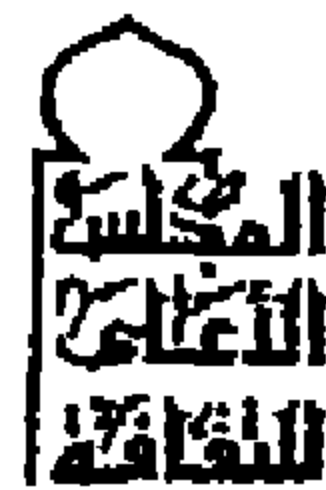
المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

قصص

كيف يحارب الجندي بلا خوذة ؟

سمير الفيل



٢٠٠١

إهداء

**إلى الشهداء الذين رأيتهم
قابضين على دباشك بنادقهم
في الحفر البرميلية بعد مرور
سنوات طويلة من الحرب**

سمير القيل

قرنفلة للرحيل .. وخوذة

قلت : أسميتك أمنية . هزت رأسها ، وأسبلت جفניה للحظة ،
لاحقتني ابتسامتها : لماذا ؟

قلت : لا بد أن نعيد ترتيب كل شيء . من جديد سنبدأ . وسيكون
الكون حلواً . استدارت ، واجهتني : « لاتذهب » مر سرب من طيور
النورس .

كان الصباح مشرقاً ، وشقشقات العصافير تأتي واهنة ، لكنها لحوحة .
وددت أن آخذ يديها بين يدي . كنا وحدنا ، والكلمات يخفق لها القلب .
في المدرج ضغطت على يداها الرخصة . وسط الزحام كنا . أطرقت
برأسها ، وسحبت يدها مرتبكة .

كانت القصيدة لها . لها وحدها . حين ألقيتها للجموع الصاخبة
شعرت أنني اخترق الأزمنة والأمكنة ، وأقف أمام سريرها ، لأشبهق
بالشيء الذي أخفته الحروف . قالت بعينها الوديعتين : « لاتذهب معهم »
كنت أريد أن أذهب . أتركها وأعيد ترتيب أوراقى . بابتسامتها الأخاذة
ودعتنى وأسنانها المفلوجة كانت آخر ما رأيت . هبطت السلم قفزاً . كان
التلاميذ يلعبون فى الحديقة بمكعباتهم الملونة . عندما رأونى ضحكوا فقد
كنت أعدو هذه المرة . الجرس النحاسى يلق ، والصفوف تنتظم .

قلت لأمى إننى أسعل بانتظام ، وصدرى يضيق ، وأننى أشعر
باختناق يتزايد عندما الليل يأتى . . قامت تعد لى كوب اليانسون . قالت
أنت ترهق نفسك كثيراً . نم أسبوعاً . واسترح .

فى طابور الاصطفاف الصباحى كنا ننتظر تلك الكلمة : « استرح !! »
ما إن ينطقها الأومباشى فتحنى حتى نخرج مناديلنا الكاكية ، ونمسح عرق
الوجه ، ونحرك الجلع الذى تيس .

قلت للقائد قبل أن أحصل على تصريح أجازتى الميدانية أن مدفع
الهاون يحتاج إلى صيانة . هز رأسه بغير اقتناع . رد بأن الدخيرة نفسها قد
عطبت فى صناديقها ، وأن الشحم الذى وضعناه منذ الشتاء قبل الماضى قد
أساله حر الصحراء اللافح ، وأن الأمر برمته لم يعد يجدى .

كان يشير بكآبة تجاه الشرق ممتعضاً ، ويرج المراقبة خال من حراسه ،
والعساكر خلعوا خوذاتهم وعلقوها على جدران الملاجىء الحديدية المقوسة .
قلت : إننى ذاهب . هل تحتاج إلى كتب من القاهرة ؟ هز رأسه :
مللت الكلمات . لا تحضر شيئاً البته .

قالت أمنية : أرجوك ، لاتذهب معهم .

اغتصبت ضحكة : هل تخافين على ؟

هزت رأسها بغضب « طبعاً » ! كانت الشموس تشرق من عينيها ،
وكنت لا أخاف أن تغرب . كنت فرحاً لأنها تخاف أن أذهب ولا أعود .

قالت أمى : « لماذا لم تعد تزورنا ؟ هل شغلك شىء عنا ؟ أنت دائم
للسفر ، وقد أرهق صدرك ذلك الهواء البارد الذى تعبته .

لم أكن أدخن ، وكنت أسعل فيرتج جسدى كله . أمسكتنى بيديها :
« لاتستجب للسعال . املك نفسك » .

لما أرسلتنى أمى بالملابس التى خاطتها للجيران فى المنزل ، الذى يقف

شامخاً على ناصية الشارع ، قابلتني سوسن أمام باب شقتهم . قالت لى :
« لماذا تمشى حافياً ؟ لماذا ترتدى « البيجامة » دائماً ؟ هل تحب قمر الدين ؟

قالت لى : « اتبعنى » أخذتني من يدي ، فتحت الباب ، وجذبتني
إلى حجرة النوم كانت الملاءة البيضاء المشغولة بورد أحمر كبير مدلاة ،
حبوت خلفها رفعت سبابتها ولاصقت فمها : « هس ! »

راحت تقطع يديها المدربتين قطعة من لفافة قمر الدين : « هس ! »
أمضغ فى تلذذ، تمضغ وتكتم ضحكاتها . قالت : إن تلك اللفافة لاتفرغ
أبداً.

نادتها أمها : سوسن . أخرجت رأسها الصغير ، صاحت : « حاضر
لا يوجد معى أحد » سمعت وقع الأقدام : جذبتني من ملابسى : من الذى
أدخلك هنا ؟ « بكت سوسن ، قالت : أنا . . كنا نلعب ! » أخفيت قطعة
قمر الدين خلف ظهري صفعتها الأم . شتمتها . قالت لها كلاما موجعا
خرجت من المكان مختنقا ، أردت أن أبكى لم تكن هناك دموع .

قالت لأمنية وقلبي يبكى : « أتيت بعد موعذك بعشر سنوات ! »

تأملت قصيدتى « أعرف خطك جميل ، وحظك . . » ارتج عليها
القول ، أردفت : « حاول أن تقتنع بكلامى . لاتذهب معهم ! »

كان الأولاد فى مقاعدهم يحدثون جلبة . قلت لها « ستحدث فى
الأمر ! » عدت إلى منزلى دون أن أراها ، كانت قد انصرفت ، ودعتني
من بعيد . فى الصباح قابلتها متجهماً ، كنت أحاول ضبط انفعالاتى .
قلت : « صباح الخير ! » ردت : « صباح النور ! » كل كلمة لها حساب
دقيق : مر اليوم دون أن أنظر إلى عينيها البنيتين . شعرت بافتقاد أنفها

الدقيق ، وهلالان سوداوان يعلوان العينين . كانت ائتلاف الضياء يرحل .

فى المساء جلسنا فى المقهى . لاحظت أن معظمنا يضع على وجهه نظارة طبية . ضحكت بصوت مبحوح ، ونبرات صديقى المتحمس تعلو فى انفعال .

والجو محموم من حولى ، تصفيق متقطع ، وكوب الشاى بين يدي ، أحرکه لعل الدفء يأتى . كنت أنقب فى الوجوه المكدودة عن أثر لذلك الشئ النبيل ، الذى فديناه بالدم منذ أربعة عشر عاما دون جدوى ا

صاح كهل فى ركن بالمقهى : « كفوا عن الكلام . نريد أرزاً »
تحسست بأصبعى الورقة المطوية فى جيب السترة ، أعدت إحكام الكوفية حول رقبتى ، قالت لى روجتى فى الصباح لماذا تترك صدرك معرضاً للهواء
ضع صديرياً صوفياً يقيك البرد : قبل أن أرد . قالت : « ماذا نأكل اليوم ؟ »

كانت طلقتى المصوبة تجاه الهدف دقيقة ، انفجرت القذيفة ، وسمعت من على بعد صوت الارتطام الهائل . الرائد يسرى ربت على كتفى :
« بطل ! » قالت سوسن وبعينيها أثر دموع قديمة : لماذا لم تعد تاتى ؟
جاءت إلى حوش منزلنا ، ومعها صندوق العرائس ، وعقد الخرز الملون ، وأصابع الطباشير ، كان وجهها بشوشا ، وستتها المكسورة تميزها عن كل البنات جلست على مربعات البلاط . قالت . لماذا لا تلعب معى ؟ هل أنت حزين ؟ » .

لما رأتنى أمى لا أكاد ألتقط أنفاسى إلا بصعوبة أصابها الفزع .
قالت : « أنت لا تأكل جيداً .. تحرم نفسك من أجل أولادك . لن ينفعك

أحد « عدت إلى حقيبتى القديمة فى ركن منزو ، أعدت قراءة الأوراق المهترئة عثرت على صورة أبى فى إطارها الأسود . وكانت قد فقدت من زمن : كنت أشبهه . لكنه كان متأنقاً فى هندامه بصورة لافتة للنظر ، طربوشه مائل فى زهو وجهه متصلب ، وحذاءه مصقول ، ابتسمت ، أخرجت صورة أمنية ، وتأملت العينين الوديعتين ، وثوبها الأخضر ، وطيبة بلا حدود تشع من الملامح الهادئة .

وضعت يدى فى جيب السترة ، كانت الورقة قد تمزقت ومكبر الصوت يكمل صراخه ، وحلقات الدخان تنعقد فى الجو . وهتافات منغومة تلعن الفقر ، وتطلب الحرية والخبز ، وكنت أرتعد من البرد ، وصدرى مكتوم ، خرجت ألتمس بعض الهواء النظيف .

فى الخارج واجهنى ثلاثهم ، عرفتهم من نظراتهم الثاقبة ، كانوا يرتدون معاطفهم الرمادية الحائلة ويبتسمون للملصقات على الجدران بلا معنى . قال أحدهم : « أمك ولاعة ؟ » . خمنت أنه يقصدنى ، قلت فى نفسى : « لن أزد » . عدت إلى مقعدى ، وجدت طفلاً حافياً يجلس عليه ، وييده المنشور الانتخابى وقد راح يصنع منه طائرة بذيل طويل ، ضحكت : لم لا تعمل منه مسدساً ؟ هز شفتيه بلا فهم .

قدمنى صديقى الوسيم ، أمسكت الميكروفون ، وضعت يدى فى جيبى ، أخرج الورقة . حاصرنى التصفيق من كل جانب ، وكان يأتى إلى باهتا .

حاصرنى القلق عندما تأخر الأومباشى فتحى فى مهمته الليلية ، قلت للرائد يسرى : إن تلك العملية الصعبة ، ما كان ينبغى أن ندفع فيها جندياً بمفرده . أشار لى بيده أن أنصت . كان لحظتها عائداً فى ظلام الليل ،

ومعه جهاز اللاسلكى . ويده تنزف دما . جرح قطعى . أوقفنا التزيف
بعد ساعة واحدة كنا نوارى جسده التراب فى باطن التبة الشرقية ، عند
النقطة ١٤١ بأبى وقفة . نقرأ الفاتحة فى خشوع على ضوء بطارية الهاون
٨٢ مم . ونخلفنا التباب الحاكم ، وقد غيبت بيوت الإسماعيلية
ومسطحات الماء ، غيبت كل شىء . انحنيت على قبره ، وتحسست الخوذة
المقلوبة . ورسمت بإصبعى على الرمال قرنفة !

قلت لأمنية وكنت أرتجف انفعالا : إننى برغم كل شىء ، أشعر
برائحة أشجار الكافور ، والزيتون ، وأن هذا الحب قد ابتداء بالصمت
وانتهى بإشارة خرساء . . وأن الأحلام محدودة . هذا حب لا أمل فيه . .
وأن الوطن قد أخذوه بعيدا . . وأنى أصلى كى تفيض الأنهار . « كاد
يغلبنى البكاء ، انسحبت بعيدا . عدت إلى حجرة الدراسة ، انكفأت على
منضدة التحضير ، كان التلاميذ يسمعون درس المحفوظات :

« فىك أشجار بهية . . فىك أزهار ذكية . .

« فىك أثمار شهية . . فىك خيرات هنية »

هزنى الأستاذ على : ماذا بك ؟ أما زال صدرك يؤلمك ؟ « قلت دون
أن أرفع وجهى : نعم » ! الأولاد يصرخون : « يا بلادى أنت عندى
أجمل البلدان ! » .

قال بصوته الطيب الأجش : « أشعر بتعب شديد ؟ »

لم أكن أستطيع أن أرد ، أرسل طفلاً يحضر كوب ماء ، وعصاه تشير
إلى السبورة السوداء . شربت . ومسحت عرقى . كانت رأسى ثقيلة . .
جرس الحصنة الثالثة ضرب . أغلقت عيني أسندت رأسى للمنضدة شعرت

بها دون أن أرفع وجهى . قالت : « إننى .. ذاهبة .. » . فى الفوج الأول للأسرى عاد جابر يعرج ، حين رأتى صاح بى : « عمر الشقى بقى ! » .

لم أرفع وجهى عن عرجه . احتضنته : « كيف حالك يا جابر ؟ » حين عدت معه إلى منزله بغيطة العنب . أجلسنى مع أسرته فى الحجرة الضيقة التى تطل على الإسطبل .. كان الحصان يصهل ، فيمد الأب يده ببعض العلف ، ويعاود سؤالى : ألن يحصل جابر على مكافأة أو وسام ؟ « كانت البنات الصغيرات يعصبن رؤوسهن بمناديلهن الزاهية ، ويشاركننى تناول الطعام : قطع البصل الصغيرة فى طبق الملوخية .

قال جابر لأبيه « : صديقى هذا لا يعيش إلا ليحب !! » لأول مرة تنفرج أسارير الأب . قال : « ونحن نعيش لنأكل بالدين يا صاحبى » . قال جابر : « أنه شاعر . توقعت ما طلبه : « أسمعنا شيئاً ! »

قلت : « إننى مرهق . وأن الحرب أنستنى كل ما كتبت . وإننى سعيد لأن جابر قد عاد . وإن الصليب الأحمر يطلب منه أن يسود تلك الاستمارة . وسأقوم بهذا . »

قالت بنت تشبه سوسن : « ألا تنزل معنا محطة الرمل ؟ » قال جابر : « لابد أن تنفرج على الاسكندرية . ستزور الشاطيى ! »

قلت لأمى إن الشعيرات البيضاء قد تسللت إلى قلبى هذه المرة ، وأننى وحيد . أشعر فى الليل بالرغبة فى البكاء . قلت لها إننى أفزع فى الليل على أيد تشبث بى . أيدى الرفاق الذين سقطوا فى النقطة ١٤١ . يستغيثون ويبكون الزوجة والأطفال . وأن فى قلبى وجعا . قلت لأمى إن أمنية التى لم ترها أوصتنى بزيارتك دائما . وأنهم يأتون فى الليل يدقون

بقبضاتهم الواهنة أعمدة السرير ، فتأخذنى فى صدرها وتمسح عنى كل ضيق . وأنى أخشى أن أموت صغيراً كأبى . اخضلت عيناها : « ضع المصحف تحت رأسك ! »

كانت البنادق بخزنها الحديدية مصوبة تجاه الخندق الأمامى ، وبعض شجيرات جذباء متناثرة وأمامها حقول الألغام ، حين اندفعت مفارز الاستطلاع وانفجر اللغم الأول ، أطار ساقا وذراعا ، وتدحرج جسدان : قال لى الطبيب أنت معرض للإصابة بالتهاب رئوى حاد . لاتسهر . لا تكتب . لا تفعل !

قالت أمنية : « لا تذهب . ستقل إلى الصعيد أو تفقد عملك ! »

قلت : « هذا تذكار حتى لا تنسينى . أطرقت : « لن أنساك » كان قلبى يدق بعنف ، ووجهها الأخاذ يحتوينى ، وبحيرتان من عسل لم أجروا على النظر فيهما ، قالت : « اشرب شيئاً ساخناً قبل أن تنام ! »

قالت : « لن تغير العالم بقصائلك . »

قالت : « لقد صرت حزينة منذ التقينا . »

قالت : « علمتنى أشياء لم أكن أفكر فيها من قبل » كنا وحدنا . قدمت لى قطع « كرملة » ولم تقل لى إنها تحببى . لكن عيناها قالتا ذلك ، وصارت ترسم بقلمها خطوطاً متقاطعة والحاجز بيننا لا ينكسر .

التفت إلى « المفتش » وأشار إلى الخريطة الزاهية الملونة ، قال : « التزم بتعليمات الوزارة هى دولة مستقلة ذات سيادة . لسنا فى حاجة إلى اعترافك بها . »

أريته جرحى ، طوى دفتره ، قال بصوت خافت : « اهتم بأكل العيش »! كتبت : « السيد مدير عام التربية والتعليم .. لما كانت حكومة الثورة المباركة قد علمتنا بالمجان ، وغرست فينا حب العروبة وكراهية الاستعمار ومقاومة العنصرية ، فإننى ... »

استدعانى بعد أسبوع ، قال لى ثائراً : « اذهب إلى مجلس الأمن ، واعرض شكواك . أنا هنا أبحث عن درجة ساقطة ، علاوة مستحقة ، عملى إدارى بحث . لا شأن لى بالخرائط . لا تتعبنى معك » .

أمى أعادت جس رأسى . قالت : « لا تخف .. أنت الذى توهم نفسك بأشياء . لا تصدق الطبيب ، يريد أن يعمل من الحبة قبة . سأصعد السطح ، وأذبح لك دجاجة . أتذكر يوم شاهدناك فى التلفزيون . لقد فرحت بك تباهيت أمام الجيران . لا تقل أنك ستموت » . جابر خطف ضلع الهايك يا ملازم يحيى وفصل منه ستره ، وأنا متظلم ، للأمام سر . انبطح . قم . للأمام سر . انبطح . قم . حبس ٤٥ يوما .

قال رجل طيب هامساً : « أخاف أن يحبسوكم .. خففوا بعض الشيء » صاح واحد من الخارج : « أصابنا الصداع لا فائدة من صياحكم .. بلدنا لن تتغير » كان المقهى فقيراً . وصورة اللاعب الفذ مرسومة بالحجم الطبيعى وبألوان زاهية على الحائط خلف المرشحين .

كان صوتى مبحوحاً ، لكنه عالى النبرة ، ارتفعت أيد كثيرة تلوح لى . فى المساء عالى بقرطاس الطعمية الساخنة . كانوا نائمين . جلست أمام التلفزيون أشاهد الرجل الأبيض يصوب غدارته بأحكام فى صدر الهنود الحمر . كان بعضهم يشبه المرشحين ، بل أن زعيمهم له وجه صاحب المقهى رث الثياب .

قلت لأمنية : نحن مسافرون إلى مصيرنا المحتوم .

الالتفاف المفاجيء لدبابات الستريون الضخمة فى عمق دفاعاتنا ،
وصرخة جابر الملتاعة : « حاسب » أغطس فى خندقى ، والمدفع يلتصق
بى ، والحفرة تبلعنى ورمزية الماء بلا نقطة واحدة .

قالت أم سوسن بغضب : « هذا الولد أفسد ابنتى » . وكنت أسمعها
بصوتها الرقيق تدعونى لألعب معها ، فأمتنع . وتبكى أمام الباب المغلق .
تطرق السقاطة مرات ، تنصرف حزينة وأرقبها من خلف الشيش .

قال المحقق : « أنت لم تلتزم بالمقرر الدراسى ، وتوجيهات الوزارة فى
هذا الشأن . ستكتب اعتذارا ونحفظ التحقيق حرصا على مستقبلك » حين
عدت إلى المدرسة ، أسندت جبهتى إلى عمود الخرسانة تحت المظلة . كان
التلاميذ قد أخذوا فى الانصراف . . وحدى أجلس مفكرا فى رفاق
الهاون ، والتدريبات الليلية فى أبى عطوة وفايد . وطواير الاصطفاف فى
الدفرسوار ، والتوجه لخط الدفاع الأول بالتبة ٧٥ .

حمامات تهبط فى الفناء الخالى ، تسير فى حذر . ومطر خفيف يغسل
وجهى . قال زميلى على : « أنتظر أحد ؟ » نامت رأسى على ذراعها بكيت .

قلت لها إننى تعس . وإن هذا العالم يبدو لى بلا معنى . وإن
الصدفة التى جمعتنا ستفرقنا ذات يوم .

قلت : إننى أريد أن أقبلك قبل أن أرحل .

قلت : عيناك متاهة . والحاجز الزجاجى قاس وعنيد

قلت : أحبتك .

قالت : لعلها مرحلة ، تجتازها بسلام !
قلت : أهوى أن أرى الشمس تشرق . وأخاف لى أن أتأملها غاربة .
لم تكن تسمعنى أمنية . كانت قد رحلت ، وكنت وحدى .
أخذت الأزهار من أحواضها ، وأهمس لقرنفلة غائبة ، وأتذكر خوذة
فوق عصا . . هناك على البعد !

أحزان الولد شندى

عندما كان شندى يأتى إلى حوشنا ليلعب معى يرى أكوام السمك
تصنفها أمى وزوجات أعمامى فى سلات خوصية كبيرة ، فيقف إلى
جوارهن ، وتعمل يده فى الأكوام بخفة : هذا بلطى ، وذاك مرجان .
تلتصق القشور الفضية بأصابعه الدقيقة أرفض اللعب معه قبل أن يغسل يديه
فى مياه البحيرة ، أنظر إليه يعدو نحو أعواد البوص ، يغمس يديه فى المياه
الراكدة ، يرفع يده إلى أعلى ، ثم يغطس برأسه فى البحيرة ، تضطرب
أسراب الأوز ، تسبح مبتعدة إلى الداخل . . أرى من الطاقة المستديرة نبات
« الزقيم » وقد تفتحت زهوره البنفسجية . أطلب منه أن يأتى ببعض
الزهور فيعلقها أعلى الصارى ، يأتى مسرعا ، رأسه مبلله تصرخ فيه أمى : «
لماذا أقتلعت الزقيم » وتحتة ترقد « الزريعة » يزم شففيه ، ويبدأ فى تسلق
الصارى الذى يستند على حائط الجامع ، أصعد من ورائه ، تصرخ أمى
بصوت يرعشه الخوف : « انزلا . . سأحكى لأبيك أيها الشقى . . أما أنت
فستعرف أمك ماذا تفعل فى غيبتها » . يعرف أن أمه ذهبت إلى البندر تباع
نصيب يومها ولن تعود قبل أن يصعد عم خضير إلى المئذنة ، يمد رقبته ،
ويصيح بصوته الخشن : الله أكبر . . الله أكبر . . وقتها تكون الشمس قد
لمت خيوطها وأذنت بالرحيل ، تغطس فى البحيرة متشبة بالدفء والوهج .
لن يتزل قبل أن يثبت باقته أعلى الصارى ويشير بأصبعه إلى الصواري
المتشرة على امتداد البحيرة . . ننزل . . فتلقفنا أمى ، تجذبني من شعري ،

تلطمنى على وجهى ثم تضرب شندى على ظهره ، ضربات لا تؤله . .
سرعان مايكى ، فتسرع إلى الدار ، تتشنج أصابعه ، وتصنع قبضة
محكمة ، تقبله ثم تربت على كتفيه ، وتضع « الصاغ » فى جيبه .

اسأل أمى فى المساء : لماذا تقبله ولا تفعلى معى الشئ نفسه ؟ تأخذ
شهيقا عميقا تزفر بحرارة: شندى يتيم . . فقد أباه وأمه .

فى الليل يعود الرجال من البحيرة بزوارقهم التى تأتى مسرعة ،
المدارى تنغرس فى القاع حيث الطمى اللزج . تخرج النسوة يحملن
مصاييحهن يلوحن للرجال عراة الصدور . يحملن الشباك المبللة بالماء ،
ينشرنها على جدران الأبنية الواطئة ، وعلى طول الساحة الممتدة ، نرى
الرزق وفيرا فى ضحكات الرجال ونكاتهم قبل أن تصل الزوارق إلى
البلدة ، وتلقى بمراسيها ، يأتى شندى يجذبني من نومي : هيا . . نلحق
« الزفر » ! ابحث عن جرايى التيلى ، أحمله فى يدي ، نلتقف السمكات
التي تسقط على الشاطئ أثناء نقل السلال . نخوض معاركنا الصغيرة
بأقدام حافية وأنظار ثابتة . . بين الحين والحين نتحسس ما أصبناه من رزق
وعندما يقترب أبى ، أقذف بجرايى لشندى وأتعلق فى أقدامه ، يرفعني
ليغسل وجهى نور القمر ، يقبلني وأمى لا تفعل . أتحسس ذقنه النابتة ،
شعيرات بارزة تتناثر فى فوضى حول صدغيه ينظر شندى نحوى ويطرق
فى صمت ، أعرف لماذا هو حزين ، أمى حدثني ، وهى لذلك تعطيه
« صاغا » وتقبله ، لكن الحزن لا يذهب ، أمى تحكى لى : يوم جاء
الخبر ، شقت الزوجة ثوبها ، تعرى صدرها أمام الناس ، لطمت خديها
وصبغت وجنيثها بالنيلة ، عفرت وجهها بتراب الساحة . بكت بصوت
عال . . كنت رضيعا تحبو ، خفت أن أرضعك بشديى لأننى حزنت على

صديق وما أصاب زوجته من بعده . ذهب إليها الشيخ خضير . حاول أن يواسيها بكلماته الحانية ، ازداد نواحها ، تركته يتلو سور القرآن وخرجت إلى الخوش ، نزعَت الشباك التي تركها بعده ، مزقتها : « لن يخرج بشباكك غيره » . جاءت على المدارة الغليظة وكسرتها . ثم جلست على حافة سريرها النحاسي ، وبكت .. بكت والطفل في أحشائها يئن من الحزن . ظنت أمي أن الطفل سيموت كمدا ، توقعت أن يجهضها الحزن . لكنها في ظلام الليل والرجال في البحيرة والمطر يسقط مدرارا ، أتت صرختها تشق سكون الليل ، أسرعن إليها ، كانت تمسك بحديد السرير وتزوم ، الفجر غبش وضباب ونورس يحوم في الفضاء تزوم .. آه .. أم .. آه .. أم .. تنقبض أصابعها ، تنقلص ، تنقبض .. شدي حيلك .. آه .. أم .. آه .. أم .. الطلق يتوالى ، تنقبض أصابعها أكثر ، تترك حديد السرير ، تمسك بملاءة الفراش تنكمش في يدها تعض على الوسادة ، تتشكل قسماتها المأمضا ، تنبسط يدها ولد .. ولد .. تغمض عينيها تروح في سبات عميق .

لم تزغرد النسوة كالعادة ، خفن أن يقال أنهن لا يعملن للموت حرمة . استقبلن شندي بوجوه متجهمة ، صلبة ، تقطر حزنا ، ازداد الحزن .. تحدثني أمي .. القمر يغسل وجوه العائدين إلى بيوتهم .. تحدثني .. عدنا في صمت إلى بيوتنا ، وشندي يرفس بقدميه الهواء ويكي بكاء مرا بينما المطر قد توقف عن الهطول والديكة فوق الأسطح كفوا عن الصياح والصباح خجولا أتى .. والصواري على البعد ظهرت .

ينزلني أبي على عتبة الدار ، يطرق الباب في خفوت ، تسرع أمي بخطواتها : حمدا لله على سلامتك تغلق الباب من خلفنا ، تسرع لتعد له

الماء الساخن ، تدلك قدميه : تعبت الليلة . يهز أبى رأسه فى رضى ،
يشعل سيجارته من علبة الحديدية الصدئة ، ينفث دخانه الأبيض فى فضاء الغرفة .

أطل من الطاقة . أبصره يعود وحيدا يحمل فى يده جرابى وجرابه ،
فى الضوء الفضى يطوح ما بيده فى الهواء . ينظر بحسرة إلى البيوت التى
بدأت تغلق أبوابها خلف الرجال ، يعود لتنهزه أمه تغلق الباب ورائه بلا
رجل . ينام شندى يحلم بالقروش ! أطلقت الأعيرة النارية فى الهواء ،
سارت أختى يوم زفافها تسبقها الزغاريد ، ودقات الدفوف متلاحقة ، ينداح

« البحر شافها راح خطبها

ودق ————— يوم بابها ————— »

تسير عفاف فى خجل ، تنثر النسوة حبات الملح وحفونات فوق
الموكب ، أضواء الكلوبات يختلط بوشيشها ، أراها خلف النور تسير بثوبها
الأسود ، وعينيها غير المكحلتين ، لاتصفق مثلما تفعل خديجة التى
استوقفت العروس وحزمت نفسها وراحت ترقص ، جسدها يهتز فى إيقاع
محموم ، تسرى البهجة فى الحشد وهى تدبذب بقدميها الصغيرتين ،
وتطوح رأسها فى كل اتجاه . ركبت أختى الهودج المزدان بالورود وسعف
النخل الأخضر وسار الموكب نحو الدار المطلة بنوافذها على البحيرة ،
صعدت مع عريسها إلى غرفتها . كانت البلدة ترقص وتغنى ، بينما شندى
يجذبني من يدي ، يقرص صديق له ثم يختفى فى الزحام ، يضحك
ويهرب بين أقدام الرجال حتى لاتراه أمه ، تخاف عليه أن يفسده الفرح
وهو ماعرف سوى الحزن .

يفتح الباب ، وتمتد يد « بالعرض » تأخذ أمى المنديل بيقع الدم فى
شاش القماش الأبيض تفرده فوق رأسها ، تغنى البنات من جديد . .

« قولوا لأبوها أن كان جعان يتعشى

وإن كان تعب يخرج قوام يتمشى »

تدوى الأعيرة النارية متلاحقة ، تبكى أم شندى . يلمح النسوة دموعها تنسال على وجتيها يخففن عنها . يخجل شندى أن يرى أمه تبكى ، ينفلت من الزحام الذى يحبه ، يجرى حيث الدار ، يغلق الباب خلفه ، أطرقه لحوحًا ، لايفتح ، أقفز من الطاقة ، بعد أن أحشر جسدى فى استدارتها أربت عليه ، يبكى هو الآخر ، لماذا تبكى ياشندى ؟ لا يرد على سؤالى . أعود لأمى الفرحة . أكرر السؤال ، تختفى ابتسامتها ستعرف عندما تكبر .

لكننى لست صغيرا يا أمى ، أنا الآن أسرح مع الرجال فى البحيرة ، أعرف كيف أفرد الشباك وأمسك بالمدراة ، أغرسها فى الطين ، ليتسلل خشب الزورق من تحت قدمى . أنزعها فى قوة وجسارة وأغرسها . لم أعد صغيرا . أعرف البحيرة شبرا شبرا مكان وجزر ودريعات . . تحدثنى أمى : مات صديق وهو فى عز شبابه . ابتلعتة الحرب . لم يكن قد مر على رواجه سبعة أشهر حتى جاءته ورقة الاستدعاء . خلع لباس الصيد ، وارتدى أفروله الكاكى ، وذهب إلى الميدان ، من يومها لم يرجع .

عندما أذهب إلى مقابر البلدة أحمل عن أمى الخوص الأخضر وفطائر « الحسنة » يأتى شندى معنا ، يقول لأمى : لا أعرف قبر أبى . تسمر أمى نظرتها فى الشواهد الخشبية ، والأضرحة التى تعلوها الأهلة ولا تنبس . نقرأ الفاتحة ثم نقبل أيدينا وجها لظهر ، يأتى الشيخ خضير ، يهز ظهره قبل أن يتلو السور الكريمة .

نتجول بين المقابر ، ويحدثنى شندى عن أحزانه : ذهب أبى ولم يعد ، حتى قبره لا أعرف أين هو ! تقول أمى أنه مع النبى فى رياض الجنة ، لكننى كنت أريده هنا معنا . أنتظر قدومه ساعة الفجر ، أتعلق فى عنقه ، يحملنى أو يزجرنى ، لكنى أراه . . أمى تحكى أنه كان طيب القلب لماذا ذهب ولماذا لم يرجع ؟ استمع لشندى وأخذه من يده ، ونبتعد عن المقابر ، أعرف أنها تثير شجنه وتزيد أحزانه ، تقترب من البحيرة ، نخلع ثيابنا نعلقها على أعواد البوص ، نقفز فى المياه الحبيبة تغمر جلودنا السمراء . أصبح بجواره ، والشواهد تتصاغر مبتعدة !

عاقبنى أبى لأئننى ضربت توفيق ابن العمه « محرمة » ، ضربته حتى سال الدم من أنفه ، وصار بقعا حمراء تلتطخ قميصه . أتى بحبل مجدول ، وظل يضربنى غير آبه لصرخاتى وألمى إلى أن أتت العمه على صوتى ، وطلبت منه أن يسامحنى على أن لا أعود لضرب ابنها . تركنى أبى، نظرت إليها فى تحد . هى التى جاءت تشكو وهى الآن تطلب العفو عنى . أمى لاتفعل هذا . عندما أصاب بجرح ، تضربنى ولا تطلب من الجارات أن يضربن أطفالهن .

عرف أبى أئننى ضربت توفيق لأنه شتم شندى وعابره بثوبه الممزق ، وأقدامه الحافية . رغم ضرباته القاسية فلازلت أحبه ، قدم لى كوبا من الشاى تناولته من يده ، ثم تركته يبرد ، ثم أشربه أخاف أن يغضب فيضربنى ثانية .

سمعت جلبة فى الخارج ، نظرت من الطاقة ، كان الأولاد يتحلقون بقرة مزينة بطوق من الورود ، يلتف حول رقبتها المتهدلة ، يقودها أحمد ابن جزار البلد ، يهتف بصوته القبيح : « الكيلو بكام ؟ » فيرد الأطفال فى

حماسة يبحون حناجرهم : « بجنيه ونص » يرقص أحمد أمام البقرة التي يسحبها ، يلفه الغبار وعيون النور يرمقنه فى استطلاع : « وعند مين ؟ » .
يعود للأطفال نشوتهم « أحسن جزار » .

ولأنه جزار القرية الوحيد ، فقد فرحت لأن أبى سيشتري لنا لحما يوم الجمعة ، حيث يأخذنى معه المسجد ، لأصلى بجواره ، نعود إلى المنزل ، فتأتى أمى بالأطباق مملوءة بالحساء ، وقطع اللحم . أنتظر أبى حتى يسمل ويمد يده . فتبدأ أمى فى إعطاء نصيبى من اللحم . لاتنسى أن ترسلنى إلى شندى ليأكل معنا ، تمنعه أمه ، فتقسم أمى أن تكون قطعة أن لم يأت .

ينام أبى ، فنجلس مع أمى نتحدثنا عن عم خضير الذى تقسم أن الناس رأوه يمشى على سطح الماء وأن له كرامات وحجابه يرد عين الحسود أقول لأمى أن الذباب يقف على وجهه فلا يطرده بيده فكيف يكون صاحب كرامات ؟ تتوعدنى أمى : كيف تتحدث عن الشيخ خضير هكذا . . أفسدتكم المدارس !

وعندما نخرج إلى الساحة نلعب مع الأطفال . يطلبون أن تكون اللعبة « حرب المراكب » فيرفض شندى أن يلعب ، يلعن الحرب أمامهم . . ذهب أبى ولم أره . أتعرفون الحرب يا أصحاب . أمى حدثنى عنها . قنابل تنفجر ، ودماء تنبثق . وأشلاء تتطاير وجثث تتفحم ونساء تترمل وأطفال يفقدون الآباء . يرد عامر ابن العمدة : أنت تخاف ! يطلب من شندى أن ينازله يخلع كل منهما قميصه ، ينفضا أيديهما فى تراب الساحة ، وتبدأ الأجساد تتشى وتتلوى ، كتلة تنفصل وتتداخل . أشجع شندى وهو يلوى معصم عامر ، يتأوه ثم يرمى بجسده على أرض الساحة المبتلة ، نصفق ونحمل شندى على أعناقنا ، نحمله بشيابه الرثة وأقدامه

الخافية ، ونلعب لعبته . يقول لمن يعترضه : هل تنازلنى ؟ عندما نتعب
نجلس بجوار الزوارق المقلوبة على الشاطئ كى يصلحها عم عريف نحكى
عن الجنية أم الشعور الخضراء وديك الجزيرة الذى يبيض بيضته من
الذهب ، ويحكى ابن درويش عن الحرب .

ذهب أبوه وعاد بلا ذراع ، عندما نراه سائرا فى القرية ونلمح كم
سترته يتدلى متأرجحا . الملح الدموع تملأ عينى شندى . لاشك أنه يتذكر
أبيه ويتساءل : ترى ماذا كان يقدم لى لو عاد حيا ؟؟

مرضت أم شندى ، وماعادت تذهب إلى السوق . . حمل ولدها
سلتها وذهب إلى سوق البندر يجرى على رزقه . يذهب والشمس تتمطى
بدفء خمجول يعود والغسق يصفى ظلا من القتامة على ماء البحيرة ووجوه
الخلق وأسراب الأوز التى تصبح وردية فى انعكاس طروب للسماء الدامية .

عاد شندى فى يومه الرابع نائرا : هؤلاء أناس لا أستطيع أن أتعامل
معهم .

غير لغة البحر لا أفهم ، وغير الشباك لا أحمل . . خافت الأم عليه
من البحيرة ، البرد ، والليل والنوة . قطب مابين حاجبيه وشرد بذهنه :
ليتك تركت شباك أبى يا أمى . . كان لابد أن تعرفى أننى سأعشق البحيرة
يوما . أعود إليها مثلما كان يفعل .

ترك شندى المدرسة ، خرج مع الرجال فى زوارقهم حاملا روادته فى
منذيله الصغير ، ماعاد يأتى فى الليالى المقمرة ليلعب معنا عند مراكب عم
عريف ، يتحدث عن الجنية ذات الشعور الخضراء وديك الجزيرة . ترك لى
جرابه وصنارته . . لأنه أصبح صيادا يعرف البحر والبحر يعرفه . . عندما

تعود المراكب صائمة بلا رزق . كان يأتى الدار ، يصفر صفارته التى أعرفها ، أخرج إليه ، أعانقه ، تستند ظهورنا إلى الزوارق وندلى أقدامنا فى مياه البحيرة : كيف حالك ؟

يطوقنى بنظرته الودودة : الحمد لله . أمى مازالت مريضة . أخاف عليها . لقد تعبت كثيرا وفعلت أكثر مما يفعل الرجال . آن لها أن تستريح .

ضربات منتظمة فى عمق البحيرة .. طاش .. طاش .. المدراة ترتفع وتنخفض ، القمر غائب والضوء بليد . من العائد والبلدة فى مرقدتها . نحدق فى الظلام الكثيف . شبح يتحرك فى اللاضوء ، يبدو أنه رآنا : مساء الخير . نعرف من صوته درويش ، لقد تخلف عن الرجال لأنه يتحرك بقاربه فى صعوبة ، يرفض مساعدة الرجال ، ويقسم أنه مثلهم . مثلما كان دائما قبل أن تطيح الحرب بذراعه القوى .

أذهب مع شندى إلى منزل الأم . يقبلها فى حب بالغ : لماذا رجعتم سريعا يا ولدى ؟ يطلق ضحكته الأسيرة : الخير وافر .. حمدا لله ..

أعرف أنه يكذب . تعتذر لأنها لاتستطيع أن تعد لنا أكواب الشاى . أذهب مع شندى ليعد شايا لثلاثتنا . القمر مختنق فى الفضاء البعيد .. من الطاقة أراه . تدوى بعض الأعيرة النارية أعرف أنه فرح ابنة عمى ريحان .. ستبكى أم شندى ، وتتذكر ، الرصاصة التى سكنت صدر زوجها ، لا أنسى يوم زفاف أختى ، دموعها المنهمرة ، ثوبها الأسود الذى ماخلعته يوما . تختلط فى ذهنى الصور ، وتتضارب الأفكار ، أكوام السمك فى حوض الدار أختى تركب هودجها ، الأعيرة النارية تومض فى الظلام ، درويش يجدف بذراع واحدة ، البقرة فى الساحة يزفها الأطفال ، أم شندى المريضة ، شهيد لانعرف قبره ، طفل لم ير أباه ، شواهد المقابر

الخشبية ، زوارق تعود بلا رزق ، دموع تنساب ، يدها تنقبض
وتنبسط ولد .. ولد .. ضربات أبى على جسدى .. شندى ينازل ابن
العمدة .. كرمات الشيخ خضير .. تكسر أمامه مدراة الغائب .. يهتز
ظهره دونما سبب .. قريتى .. حزنك المتواصل لا يرحل رغم الأعيرة التى
تومض .. آه .. أم آه .. أم .. دقات الأطفال على الأوانى النحاسية ..
« ياسيدنا يا عمر .. فك خنقة القمر » أمى ما زالت مريضة .. أخاف
عليها ..

تسمرت عيني على صورة داخل إطار زجاجى ، محاطة بشريط
أسود .. لرجل كث الشارب ، حلو التقاطيع ، كان يتسم لى فى مودة ،
لكن القمر غائب والليل يستبيح القرية . مد يده بكوب الشاى . رآنى
أحرق فى الصورة . أبى .. لم أره إلا هنا .. كثيرا ما أحدثه عن
متاعبى .. أنه يسمع لى .. ويخفف عنى .

فتحت نافذة الدار ، تدفقت نسمات باردة فى جو الغرفة ، استنشقت
الهواء رطبا ، زفيرى الحار يلهب صدرى ، أنظر ثانية إلى الصورة على
جدار الحجرة ، ينتقل بصرى إلى الظلام يعتلى البيوت والبحيرة والقمر
يتملص من قيوده ، وضربات الأطفال تتعالى وأصواتهم تقترب ..
الدقات .. الدقات .. أهتف معهم .. أهتف بصوت عال يملا المكان :
« ياسيدنا عمر .. فك خنقة القمر » .

وأبكى .. أبكى لاستريح ...

العصا والخوذة

ألقيت نظرة مستطلعة إلى الفضاء المعتم خارج الملجأ . . تجولت عيناى فى الظلمة الكثيفة . بحثًا عن ضوء نجمة . . أرتد بصرى إلى حيث أجلس تحت القضببان الحديدية المقوسة التى تئن تحت ضغط ذرات الرمال التى راحت تتراكم حول المكان محدثة صوتًا غريبًا لم نألفه . . خيل إلى فى البداية أن المطر قد هطل غزيرًا ، لأن صوت النقرات الخفيفة قد اشتد ، جذبت سترتى الصوفية ، وأرتديتها على عجل ، تأكدت أن القايش يحمل جفير السونكى ، حملت بندقيتى ، تأكدت أن القايش مشدود على وسطى ، صعدت الدرجات القليلة التى صنعناها من غرارات الرمل ، شعرت أنها ليست بالصلابة التى تعودتها . حاولت فى مشقة أن أنفذ من فتحة الملجأ التى ضاقت على غير العادة .

واجهت الفضاء ، واستبدت بى الدهشة ، كانت العاصفة الرملية قد هبت وراحت تقذف بملايين الذرات الرملية مغطية المدافع وملاجىء الأفراد وحفر الذخيرة ، دون أن يخبرنا فرد الخدمة الليلية . لولا ميعاد خفرتى . « الكينجى » لما صحوت ، ولطمرتنا الرمال دون أن نشعر !

ناديت بأعلى صوتى على رفاق الطاقم ، لم تقلقهم صيحاتى . نزلت الدرجات التى كادت تختفى ، هزرتهم فى عنف . . العاصفة . العاصفة . . وضعت بندقيتى الآلية فوق سريرى « الصباح » . انتزعتهم من أحلامهم الكابوسية التى يقصونها على فى الصباح . عبد الرحمن ، ومحمود ، وبشندى ، وفزاع . خرجوا « ببيجاماتهم » الكاكية ، يحملون الكواريك ، هرولنا تجاه حفرة الهاون المستديرة ، كان جسد المدفع قد اختفى ، ولم يعد

يبدو منه سوى نصف الماسورة وجهاز التصوير ، أشرت على عبد الرحمن أن يسرع به إلى الملجأ . ويعود بسرعة ، رحنا نحفر حول المدفع فى قوة . . تلك الضربات المميزة لفزاع راحت تصنع فجوة حول الجسم الحديدى . أتى على أصواتنا الرقيب درويش تشاجرت معه . . لماذا لم تنبها إلى العاصفة . . وأنت حكمدار الخدمة ؟

رد فى هدوء . . وهل يترك الجميع الحفرة ؟

صرخت فى وجهه . . هذا أفضل من أن تردمنا الرمال .

لم يرد على صيحاتى ، انشغل معنا فى اخراج المدفع من حفرة ووضعه فوق التبة الشرقية القريبة من خندق المشاة الأول .

طهرنا حفرة الذخيرة ، واستخرجنا خمسة صناديق شديدة الانفجار . كلفت بشندى أن يقوم بحراسة الموقع ، وأسرعنا نطهر الملجأ الذى اختفى تماماً تحت أمواج الرمال ، ميزناه بعمود التنشين المدرج . أسرع فزاع بالكوريك يقذف كومات الرمال بعيداً ، أخذ محمود يلهث من شدة الارهاق . وعندما بدت فتحة ضئيلة ، اكتشفنا أن ذبالة المصباح الكيروسيى قد أطفئت . حاولنا قدر المستطاع أن نتغلب على تلك الرمال التى تزحف فى نعومة إلى أرضية الملجأ . . عاد (نوار) من خدمته البرينجى وشاركنا العمل .

تذكرت ملجأ الضابط « وحيد » فكلفت فزاع وعبد الرحمن أن يسرعا ويحاولا إزاحة الرمال . فهو لن يصحو قبل التاسعة صباحاً وفى الوقت متسع .

مرت الدقائق بطيئة ، هدأت حدة العاصفة ، وضحت الرؤية بعض الشيء . توقفت الذرات عن الارتطام بأجسادنا ، كانت الخيوط الأولى للفجر

توشك أن تنسج ، عندما كفت الرياح عن إرسال المزيد من الرمال المتعبة التي ما تكاد تبصر بأى كائن حى أو جماد ، حتى تستقر من حوله ، وكأنها جدار شرنقة . جمعت أفراد الطاقم ، أخذت تمامهم ، ولمحت رغم أن الضوء كان مجهداً أن الرمال قد صبغتهم وحولتهم أشباحاً صفراً ضحكنا فجأة ، أخذت الضحكة تتسع عندما عرف فزاع أن محمود قد أخفى أقراصاً من (المشبك) الدمياطى فى حفرة برميلية ، وضع عليها علامة ، يرجع إليها وقت الحاجة خوفاً من هجوم بشندى .

سوت العاصفة أرض المكان فأخذ الموقع هوية جديدة .. صبحا الضابط وحيد على ضحكاتنا ، أمرنا أن نكف عن الهزل . ونسرع بصيانة المدفع فقد تقوم العاصفة ظهراً !

قاسية هى شمس سيناء فى الظهيرة ، تلهب الوجوه بوهجها فتأخذ أنفاسك فى صعوبة ، خاصة عندما تأتى الأوامر من قيادة اللواء بالانتقال من موقع إلى موقع جديد .. مرت ثلاثة أيام على ترحيلنا إلى قمة هذه التبة سألنا عن اسمها ، فعرفنا أن اسمها (أبو وقفة) صحراء شاسعة تمرح فيها الفئران البنية اللون التى تشاركنا طعامنا دون استئذان طاردناها فى البداية ، ولما تمسكت فى عند بحقها فى « الجراية » قلنا لأنفسنا .. لا مانع .. فإله يرزقنا وإياها . تعودنا فى مواقع ومعسكرات سابقة أن نتألف مع القطط والكلاب . فلم نصنع عداوة مع أبناء عمومتهم ؟

عصر يوم من الأيام جمعنا الضابط وحيد لتوزيع الخدمة الليلية ، كنا قد جهزنا (براد) الشاى ونستعد للشراب ، لكننا تركناه وأسرعنا بالاصطفاف على كئيب منه .. تسلل فأر بحذر شديد وراح يحوم حول المكان .. اقترب من (البراد) وراح يتشمم الشراب اللذيذ ، نلمح بطرف

أعيننا البخار المتصاعد ونخشى ما سوف يحدث ، ارتكز الفأر على ساقيه
الأماميتين ، وراح يلحق الشأى ، ثم لسعته سخونته فراح يجرى هارباً ويثن
متألماً . . وفزع الذى كتم ضحكته ، انفجر ضاحكاً يضرب كفاً بكف . .
والضابط وحيد لا يعرف السبب ، وهو من أنصار المقولة الشهيرة . .
(ضحك بغير سبب . . قلة أدب) ، لذلك أعطاه خدمتين زيادة على
خدماته الليلية . وعندما صرفنا الضابط كانت ضحكاتنا تلون الفضاء . .
والفئران بين الأسلاك الشائكة تلهو .

مرت سنة كاملة على حرب أكتوبر وانتقلنا من مواقعنا بالدفرسوار
حيث أشجار المانجو تحيط بالموقع من كل جانب وعيون من المياه الصافية
تتدفق دون حساب هنا وهناك . إلى داخل سيناء .

هذه هى الأرض التى حاربنا فوق رمالها ، والدبابات المحطمة
على مرمى البصر . . كلنا حاربنا وذقنا لوعة الفراق ، ومرارة
الانكسار . . انصهرت فينا الأحاسيس النبيلة ونحن نواجه الموت
كل لحظة .

هاهى العقارب تلهو بين أعواد الحشائش اليابسة ، بالقرب من المدق
الجبرى النازل للطريق الأوسط ومن حولنا حقول الألغام ، تحدد مربعات
الأسلاك الشائكة .

العيون مجهدة ، والأنفاس متعبة ، عندما نبصق نخرج من صدورنا
رمالاً لزوجة ، أستشقناها ليلة أمس ، نعيد تركيب الهاون فى حفرتة
وتنظيف الذخيرة ورصها من جديد .

أعرفكم على أفراد طاقمى . .

أصغرهم وأقربهم لقلبي عبد الرحمن من السجاعة وهى قرية صغيرة تتبع المحلة الكبرى ، فتى ريفى ، طيب القلب ، لم تحنكه التجارب بعد . الوحيد الذى دخل الخدمة بعد انتهاء الحرب فى طاقمنا ، لذلك فلن تأخذك الدهشة أن رأيتَه يضحك ، وينظر للعالم تلك النظرة الوردية التى لم تر الوجه القبيح من التجربة ، ولم تقرب عالم الموت والقنبلة .. يحتفظ بصورة خطيبته فى جيب سترته . عندما كان يعرض صورتها علينا خطفها فزاع وقبلها فى خبث ، فكانت مشاجرة مزقت فيها الملابس وبدأت نذر حرب تظهر فى الأفق إلا أن خبرة فزاع ، جعلته يحتوى الموقف ويعطى عبد الرحمن صورة زوجته ليقبلها وتنتهى الأزمة .

بشندى وفزاع ، كلاهما من الصعيد ، وقد اشتركا سويا على نفس الطاقم خلال حرب أكتوبر . أصيب الأول بشظية فى كتفه ، استخرجوها له فى مستشفى القصاصين ، أنه أب لثلاثة أطفال ، يدخن سيجارتين كل دقيقة ، أما فزاع فإنه صاحب المواويل الطيبة ، يذكر كلما استمعت إليه بالحنين للأرض ، وتكاد تطفئ الدموع من عينيك إذا غنى للغربة والحبيبة أما نوار فهو صياد من بحيرة المنزلة ، يدعى أن له زورقا يمتلكه ، ويصطاد من فوقه ، يطرح الشباك فتخرج ممتلئة كل مرة ، ويقسم أنه يغوى جنية فى جزيرة الذهب ، يطارحها الهوى فجر كل يوم خلف أعواد البوص ، وأن السر لو تسرب لأهل قريته لطرده شر طردة .

محمود ، المدرس الوحيد بيننا ، يقرأ كثيرا ، ويحدثنا ليل نهار عن فتاته التى يهاها ، ويكتب عشرات الخطابات فتد بكلمات لو سمعتها لقفز قلبك بين ضلوعك .

أراكم تتساءلون عني ! ناجح عبد المقصود . هذا أسمى أعمل على
ظهر إحدى مراكب الصيد ببورسعيد . وأقطن بالقبوطى . أبى حارب
خلال العدوان الثلاثى ويقسم أنه شارك فى اختطاف (مورهاوس) ابن عمه
ملكة بريطانيا . هاجرنا خلال أحد عشر عاما مرتين ، ذهبنا فيهما
لدمياط ، حيث أن أمى من تلك البلدة ، ولهذا فأنا على شجار دائم مع
محمود ، فهو يلقبني « بالبلطاوى » وهى كلمة تعنى لديهم البورسعيدى ،
مضافا إلى ذلك ، اتهام صريح بالمبالغة فى القول مع قلة الحيلة .

هذا الطاقم حارب فى أكتوبر كما لم يحارب أى طاقم آخر ، خضنا
المعارك دون خوف ، فقدنا (عبد السميع مصباح) . . سقط ونحن نصعد
هجومًا مضادًا على تبة الشجرة . . سقط بين أيدينا يتزف والوطن يضمّد
جروحه ويخطو على طريق الخلاص والعلم الذى غاب طويلاً كان قد
ارتفع . . هاهى شمس سيناء حامية لا ترحم !

عصر اليوم ، وكان فزاع يجمع بعض الصخور ليضعها على أطراف
المشمع كى لا يتطاير فوق المدفع ، اكتشف جثة شهيد قابعة فى حفرة قريبة
من المدق الجيرى على يسار حقل الألغام ، هرولنا مسرعين عندما علمنا
بالخبر ، أسرع بشندى بكوريك الفرد ، وقبل أن نعيد مواراته بالرمال ،
أشار محمود أن نفتش جيوب سترته ، لعلنا نعثر على أوراق تثبت
شخصيته ، اعترضت فما جدوى أن نفعل ذلك ، أن المنطقة عسكرية ،
وكلنا يعرف أن الشهيد يدفن أينما سقط ، طالما الحرب قائمة والقنابل
تنفجر . .

أن عملية الاخلاء لا تتم إلا فى أوقات السلم أو المعارك المحدودة . .
اختلفوا معى ، كنت حتى هذه اللحظة لم أدقق فى ملامح الشهيد ، ظنًا

منى بأن قسمات الوجه تختفى تماماً ، لكنها رمال سيناء ، تملك القدرة على أن تحافظ على الشهيد وكأنه لم يميت إلا منذ أيام . .

ارتجفت عندما مد بشندى يده فى السترة ، استخرج بطاقة مهترئة ، قرأنا فيها بصعوبة اسمه ، حافظة أوراق بها عدة خطابات ، فردت أحداها تمزق فى يدى على هيئات مربعات صغيرة قرأت . .

« ابنتا الحبيب أسامة . .

نعرفك أن زوجتكم قد وضعت مولوداً ذكراً ، كما كنت تتمنى ولم نعطه اسماً انتظارك لحضورك بالسلامة . لا تنس وأنت قادم أن تحضر الشموع وحاجيات السبوع . مع تحيات زوجتكم مبروكة » .

والدتك

أم أسامة .

طويت الخطاب ، وضعت الأوراق والحافظة فى البطاقة ، أسرع محمود للملجأ ، وأحضر بطانيته الصوفية وغطى جسد الشهيد فى رفق غطينا الحفرة من جديد بالرمال ، غرسنا عصا غليظة انتزعناها من أعلى التبة ، ووضعنا فوقها نخوذة (مصباح) الذى رحل !

حضر عبد الرحمن بعد مواودة الجثة الرمال ، لمحت فى عينيه الأسى والحزن قرأنا الفاتحة ، ورتل فزاع سوراً قرآنية بصوته الرخيم ، فأثار الشجن فى قلوبنا ، تجهمت الوجوه ، وتصلبت السواعد ، وظللنا نتحلق الحفرة ، ترقرقت الدموع فى أعيننا ونحن نستعيد كلمات الخطاب . يا ترى هل يرى الوليد قبر أبيه يوماً ما ؟

تركّتهم وأسرعت « لمخلتي » ، أخرجت لوحًا خشبيًا صغيرًا ، كتبت عليه بقلمى اسم الشهيد وبلدته ، علقتها بجوار العصا والخوذة نظر إلى فزاع فى استغراب . قال نوار ، لا فائدة . لا بد أن تقوم العاصفة ، ويتعرى الجسد من جديد .

كانت الشمس ترحل ، تطوى آخر أشعتها ، وتنسحب فى حزن وارتعاش تخيلت نفسى . . أرقد فى تلك الحفرة . أترك من خلفى طفلاً وزوجة انحدرت الدموع ساخنة من عيني . . أعطيتهم ظهري . . وبكيت بكاءً مريراً . . مريراً !

النحيب

تفصيلات دقيقة من حياة

الجندى عبد المجيد الجنزورى

مات عبد المجيد الجنزورى ! «

حشر جسده النحيل فى الوصلة بين عربتى القطار ، وعندما جذب
السائق يد الفرملة ، وأصطكت العربات هوى فى غمضة عين بين القضبان
وحبات الحصى والزلط ، ارتطمت الرأس بساق معدنية ناتئة ، وسال الدم
قطرات قطرات ..

يا أماسى الخوف والفرع ، همهمات خائفة وليل مدنس برائحة
البارود ، أفتح عيني وأغمضها على ليل مستع ونظارتى الطبية بعدساتها
الغليظة فى الليل لا تكشف أسرارها . والنجوم التى تساقطت فى داخلى ،
أضواء أحزاني الموحشة ، لها وميض اعتدته .

- يادُفعة .. هات الأروانة ! «

تسرع أقدامه على المدق الجبرى الذى تحوطه حقول الألغام من كل
جانب ، وتمرق على الضوء المفضفض سحالى تختبئ بين أوراق نبات
الصبار الدابلة ، وخنافس سوداء ملتصقة بحفرها ، يعدو بخطواته الثقيلة
على حصى المدق حاملاً تعيين السرية ، واضعاً بندقيته الآلية على صدره
لتقاطع ونظارة الميدان التى نزع غطاءها .

- « كلوا .. بالهنا والعافية ! «

قطع العدو خطوط الإمداد ، تناثرت الشظايا ، وحفرت إحداها فى صدرى جراحا صارت ندوبا لا تندمل . حين يولد الفجر أثبتت بندقيتى الآلية فى تجويف الكتف . ألصق الخد بنعومة الخشب المصقول . أكتم انتظارى وانتظر اطلالة رأس جهة المزاغل . يشير ناحية الشرق . ثم يخرج من خوذته خطابها الأخير يتسلل منه العطر وعود . القبو المظلم ، والخدمة أمام ملاجئ القادة ، صوت المذياع المكتوم فى الحفرة العميقة ، وبصيص الضوء ، والنكات الممرورة ، والملل الزاحف على المكان . يستند برشاشه الخفيف على حافة الخندق ، فتهاوى كتل الرمال على ركبته المتصلبة .

- سيدى الملازم . أورنيك عيادة إلى « القصاصين » . . أسمح بالموافقة ؟

القفز فى العربة « جار » بين صناديق الذخيرة الخالية ، مشاهدة الفتيات بأعين ذاهلة ، وشراء أقراص « الطعمية » الساخنة والعودة بها ليلا باردة كالثلج ، ورواية الفيلم الذى شاهده فى سينما الجلاء بأدق تفاصيله .

- قبلها البطل قبلة استمرت ساعتين !

- ساعتين ؟

- بل ساعة . ونحن صفرنا ، وضربنا المقاعد بالأكف ، واللعين قطع المشهد ! شهقة الحرمان ، والوجوه المتصلبة ، والليل فارس يمتطى الملل ويهجم على المواقع ، فيقابله رجال « الكينجى » و « الشينجى » ، تلك نوبات الحراسة الليلية والصول توفيق يخرج فى البرد متلفعاً بضلع « الهايك » يقضى حاجته ، ويتنحى .

- خدمة السلاح . . خدمة الذخيرة . . خدمة التعيين !

وتتردد الصيحات ناقصة الدفء ، وإغراء النوم ، والسرحان فى
الأحبة .

خريطة سيناء تشير إليها بأصبعك المبتور ، قذفوك فى قلب الجنديّة
برغم العيب الظاهر ، رفضت أن تبوح لهم بسبب يعفيك من الانخراط فى
طوابير التمام ، والزحف تحت الأسلاك الشائكة ، وظماً التدريب . من
العيب أن تعود إلى القرية دون أن تضع الكاكي فوق جسدك . لو رجعت
لقولت الألسنة ، واتهموك بنقائص الدنيا .

- « عيب يافتحى أن تسرق جرايتى ! »

حين أشار القائد ناحية الشرق ، بكى ، احتضن الرجال وبكى ،
قذف بنفسه إلى القارب ، تحسس بيده نعومة المطاط فى استدارته ، تذكر
لحظتها طوقه الذى كان يسير به طفلاً فى الأزقة . كان الدمع بلا خجل
على وجنتيه .

- « خسائر الأمس ثمان شهداء ، دفنوا فى بطن التبة ! »

تلك معاركنا الصغيرة ، كانت المعركة الكبرى ترسم فى الأفق ، لكن
متى تأتى تهتز الرؤوس حسرة ، حيث يكون الجلوس فى الليالى المقمرة
حول برادات الشاي ، وإخفاء بصايص النار فى الحفر ، بخوذة قديمة مقلوبة .

- الانتظار خيانة .

- حرب الاستنزاف بداية يافتحى !

- لعن الله صمتنا . أريد أن أراهم . اللحظة .

تسبح فى الليل العميق ، وتقذف على امتداد ذراعك تلك القنابل
اليدوية وتخفض الرأس ، تدفعها فى سكون المفاجأة ، تكز على أسنانك
والأرض تهتز من تحتك : تك .. تك .. تك .

دفعات متلاحقة من « أبى جاموس » على المواقع فى الغرب ،
صممت أن تنتزع يافطة صفراء بحروف عبرية مربعة ، قصصت السلك
المثبت فى الأعمدة الحديدية ، وبكوريك الفرد ظللت تنبش فى الأرض
لتحضر عظام شهيد دفن فى حرب ماضية. كانت العلاقة لا تخطئها
العين . خوذة وعصا رفيعة .

- الفاتحة على روحه ، يارجاله !

ضمخنا عطر الاستشهاد ، والعودة ، والارتقاء فى أحضان الرفاق ..
تلك اللمسات وخفقان القلب ، وابتسامة دبغتها الشمس . أستند بمرفقه
على باب المقهى . وكانت المذبة فى « التليفزيون » أمامه تبسم ابتسامتها
العريضة ، وتفرد بيدها الثوب المطرز بالدنتيلا ، لمحته يزرر سترته وحفيف
حزن لاتخفيه كلماته المقتضبة .

- « لم يروا الكاكي ! »

تتخشب أصابعه على قطعة الألومنيوم المثقوبة باسمه الثلاثى وديانته
وفصيلة دمه . أوغلت الكأبة ، وعصفت بروحة المستسلمة .

- « أمام القطار ساعتان »

طاردنا صوت المذبة الناعم يتسلل خفية من الباب المطفى بالأزرق .

- « قلوبنا معهم .. أبناء مصر على الجبهة » .

ضحك فجأة ، ثم اتسعت ضحكته ، حتى أنه استلقى على الطوار ،
وأنا لا أفهم . نظر إلى معتذراً : « قلوبهم فقط 11 »

فى معسكر تدريب المعادى . وقبل الحضور إلى الجبهة . فرحة
الحصول على تصريح من « القشلاق » ، الخذاء اللامع والوجه المصقول .

قال لى فى تردد أنه يجد متعة فى السير بين المقابر . الصمت الخافت
ولسعة البرد ، والشواهد الرخامية تجاور الأبنية المقوسة التى تتناثر فوقها
أوراق السعف الأخضر ، الممرات المعشوشبة مغسولة بمطر حزين تستوقفنا
يد أمرة ، ومضات من انكسار ، تلوح الأيدي بالتصريح والرقم الكودى
فى الخاتم الأسود المستدير .

- هيا نجلس فى المقهى !

فى صدره أمنيات أفلة ، يمسك جوذة المعسل يمد يده ، يعرف أننى
لا أدخن على مشارف « أبى صوير » وقفت سيارة جيب ، وقفز منها
الصول « توفيق » رأيناه يتلفت حوله . وهو يقايض بائع البطيخ ، ويلح
ليعطيه قفص شمام بصفيحة البنزين .

لكزنى الجتزورى فى صدرى ، وسبه سبابا متواصلا ، ود أن يهجم
عليه فى تلك اللحظة متلبساً بجريمته ، لكنه أصفر ، كثعبان ، يخلص
نفسه - من جرائمه الصغيرة - كالشعرة من العجين !

فى بطن التبة زحفنا ، وضربنا الغاز فى فايد ، وعندما خلصت
الذخيرة ، نبأ عبد المجيد عدة طلقات فى خزناته الأربع ، دخل علينا
الصول توفيق الملجأ فى نوبة تفتيش مفاجيء ، تلون وجهه بالغضب ،
أخرج باصابعه الرصاصات ، صفع الجتزورى وظنه يسكت ، فرد الصفحة صفعتين .

-دور مكتب ياصول توفيق !

هل دخلت السجن يافرج . حلق شعر الرأس « زيرو » .. وامتهان
الكرامة !

- سم نفسك .. باسم امرأة .. أسرع ! بقبضة يده لكمه ، ونز الدم
من بين أسنانه ، ارثمى على أرض السجن متخاذلاً ، تكوموا فى الأركان .
مد أحدهم يده المرتعشة بسيجارة « كليوباترا » : « خذ دخن .. روق دمك » .
ركله بحدائه ، وقبل أن يدفعوه إلى المكان ، كانوا قد انتزعوا منه
قايش الوسط وغطاء الرأس : « لا بأس » .

الحرس بالخارج ، والأواح الصاج المتعرجة ، وقف فوق رأس زعيمهم ،
فمه يغمغم بكلمات منكسرة : « لم أقصد .. تقاليد السجن ! » .

أقعى يمسح خيط الدم : « لا تبك .. ألت رجلاً » .

احتضنتى ، وقبلنى وساعتها شعرت بلزوجة الدم على جبهتى .

حين حملتنا قوارب المطاط ، غاصت أقدامنا فى رمال ملتهبة ، وحلق
الموت فوق الرقاب . رأينا توفيق يخفى فى المؤخرة جركن الماء ، ضربناه
بقبضاتنا لم يفتح فمه .. وزعناه على الزمزميات ، وحين امتدت الأيام
وحاصرتنا المدرعات على التبة حفرنا بأظفارنا فى الرمال بحثاً عن ندعة
ماء : يأم هاشم .. يأم هاشم !

حدثنى عن هجرته من القرية إلى المدينة ، صعدت معه الدرايزين إلى
غرفته فوق السطوح ، قابلتنا الأم بجلبابها الأسود الممزق من كتفه « ضبة
ومفتاح » احتضنته ، شدت على يدى . قدمت لنا الشاى فى أكواب

رجاجية رخيصة ، فى تلك الغرفة قابلت « أسماء » . كانت تفتح كتابها وتذاكر على لمبة جاز نمره عشرة ، والنمش الخفيف بوجهها خطف قلبى ، وابتسامتها الطفولية ، بجرأة لا أملكها ضغطت على يدها ، ضحكت . أخفت وجهها خلف الصفحات ، ظلت تلتصص على الحديث الدائر : « الكيمياء صعبة » .

قلت : « يمكننى أن أساعدك ! »

زغرى بعينه . وكانت الدجاجات التى تربىها أمه فى السطح تتقافز وتكاكى وديك له ريش ملون فرد جناحه على استقامته وظل يدور حول نفسه ، ثم قفز فى الهواء وسكن .

قامت ترقيه بالشبه والفاسوخ . . ثم راحت ترقى المكان . ترمى رأسه بحبات الأرز والملح وكلماتها المنغومة تدهشنى .

« قل إلهى يشفيك . . من كل داء فيك والله يجازيك . . من ضربة عينيك . . يا حاسد » .

بحة حزينة تختفى فى نبرات الصوت ، نثر فى الماء . وتنتهى الإجازة الميدانية ، يتلاشى الفرح ، ونهيم فى أحزان لانهاية لها .

تفرس فى وجهى وهو يعدل بيده عامود التصوير فى انحدار التبة ، ترجمه ذرات الرمال الناعمة ، ونوء بأثقال يقظة تتواصل بلا نوم . ترف ابتسامته الشاحبة ، فأقول : كل شدة تزول . وكل حرب تنتهى ! أوغلت الكآبة فى نفسه وعصفت بروحه ، كان لا يريد العودة إلا وقد سوى حساباته : أريد أن أشفى قلبى من هذا الوجع !

أخضلت عيناه بدموع أنحبست لأيام وليال . دارنا فيها الموت والجرح
والدم المثال كانت خوذته تخفى حاجبيه . أتأمل أصابعه التى تقبض على
الرمل ، تقلفه فى كومات متتالية : أريد أن يشربوا من نفس الكأس الحنظل !
وكنت أهزه من كتفيه : لقد أوقعنا بهم الهزيمة .

فيرد على حزيننا : لا أريد أن أأخذ ثأرى بطلقة أو شظية . . أريد أن
أأخثق بيدي عتق واحد منهم .

ولما سمعه الرفاق - فى الخندق - يكررها ، اسموه « الخناق » . وحين
تقدمت الحرب وقمنا بعملية تطوير الهجوم على المحور الأوسط ، أصبنا
دبابه « ستريون » وتساقط الأفراد بين أيدينا ، وكاد يفعلها مع أحدهم ،
لولا صبيحة القائد !

توقفت الحرب فجأة ، وعاد إبراهيم بساق مكسورة ، ورجعت السرية
وقد فقدت أربعة شهداء . كانت زرقة القناة خلفنا على البعد ، وأمامنا
تمرق مجتذراتهم وجلة كالحنافس الحذرة . وكان قبضته تضرب فى
غيظ خوذته التى خلعها . بحثت يده فى « الجربندية » عن متعلقات
الشهيد « مدحت أبو عبده » . قبض عليها فى أسى ، شعرت بما يختلج
به قلبه من مشاعر . شددت على يده ، وخز فى قلبى ، طموحات تعبى :
« الحرب لم تنته . . لنا عودة ! » .

الضوء الكابى يسقط على الشوارع ، يصفر بفسمه لحنا يعجبه ، سترته
المفتوحة تبرز شعر صدره الفاحم ، ينظر إلى ساعة يده . . يكمل لحنه فى
خفوت . الحلكة تحتويه ، أتسمر فى مكاتى وهو يرقص فجأة فى الشارع
الخالى من المارة . أصحابه فى الإجازة الأخيرة . يمسكنى من كتفى ويضغطهما :

- « أتحب أسماء يا ولد ! »

وشيش الوابور وهى تعد الشاى ، الأم مريضة ، تسند رأسها على
ثوب قديم طوته ، تسعل فى انتظام ، انظر إليها خلسة ، تلوح لى ييدها ، وتأتى
تجلس فى ركنها بعيد ، تبسم لحكاياتنا الأسيانة ، يقول عبد المجيد بلا مناسبة ،
وهو يرشف من كوب الشاى : « من الحرب يأمى . . شربنا بولنا ! »

تدفن أسماء وجهها الخجل فى كراستها ، أضيف : « وأكلنا الخبز
العفن » تضرب الأم صدرها بيدها ، ولا تفهم إلا بصعوبة أن الحرب توقظ
فى الإنسان غريزة البقاء بأى صورة . تصك أسماعنا خبطات بائع اللبن
« الحليب » وهو يوزع اللبن على الأدوار التى إلى أسفل ولا يصعد إلى
غرفة السطوح ، وهو يدندن بصوته الرفيع : « خلى السلاح صاحى » . .

سرحت من الجيش بعد الحرب بأشهر قلائل ، وبقي عبد المجيد
الجنزورى ، يكمل مدة الثلاث سنوات . . أقابله خلال إجازته :
« أصبر . . كلها أيام . . وتعود إلى ورشتك ! » فى آخر مرة زرته ، صمم
أن يصحبني ليريني تلك الورشة فى « حارة البركة » فتح المزلاج
الصدىء ، أجلسنى على المقعد الخيزران المتهالك ، أرانى « أزامل » متعددة
الأشكال والأحجام ، وأقسم أن يهدينى حجرة صالون من صنع يده عندما
أتزوج ، غمز بعينه ، وصدى شكوكه تحاصرني :

- « أنفرح بك قريباً ؟ »

كنت قد صممت على ألا أفاتحه فى الأمر إلا بعد أن أجهز المال اللازم .
أبصرت فى شق بالسقف برص يطل برأسه ، ويهز ذنبه . كان وجهه
شاحبا .

- هذه المرة - على غير العادة . عبق المكان برائحة عطنة .. كز
على أسنانه .

- « آه من وقف الحال » .

كان يقولها من أعماقه بأسى وحزن ، فأخرجت من حافظة نقودي
مبلغا من المال ، فشتمنى وأشاح بوجهه غاضبا : « أنا لا أشحذ .. عبد
المجيد أسطى يا ولد ! »

أعرف أن الدواء ، الذى يشتريه لأمه يحتاج إلى مال لا يمكنه تديره ،
وأن أسماء تحتاج إلى كتب وأقلام . علمت منها حين قابلتها صدفة فى
شارع « النصر » أنه قد باع « عدة » الشغل ولم يرض أن يمد يده لأحد !

* * *

قال المحقق وهو يغلق أوراق قضية موت عبد المجيد الجتزورى : أن
الحادث قد وقع قضاء وقدرًا .. بدافع حرص المجنى عليه رقم عسكرى
١٤٥٦٧٢ رتبة عريف عبد المجيد السيد الجتزورى على عدم دفع قيمة تذكرة
القطار ، مما جعله يعرض نفسه للخطر بالركوب بين وصلتى القطار ،
والارتكار بالبيادة على الأكصدمات ، فاختل توازنه وقضى نحبه .. » .

تنشق فى صدرى كل أحزان العالم ، ، أتملى الكلمات فتخذلنى ،
الغصة تملأ حلقى ، أخطو كالمنوم وأطرق بأقدامى الواهنة أسفلت الشارع .
أضواء النيون تزغلل نظرى وأشجار الكافور على الطوار مطرقة فى أسى
أقترب من النهر ، وأهبط الدرجات الحجرية أدلى يدى فى تيار الماء البارد ،
أبكى الرحيل الغادر ، وأنصت لكأن النهر يشاركنى النحيب !

أيام الزهو الرمادية

بداية :

اصطكت أسناني وأنا أتبعه . الهواء المشبع باليود يهب كعاصفة خجولة لا يكبحها رذاذ المطر الذى يطمس ضوء الفوانيس المتباعدة على الإفريز الرمادى تلك الليلة التى انتظرتها طويلا . أتحمس ذقنى الحليقة ، وأدس يدي فى جيب سترتى ، وأقرأ الورقة المطوية فى طرب . عادت لى حريرتى المفتقدة ، وشعر رأسى الذى كان يدفعهم للسخرية ينمو بعد أسابيع ، وبشرتى التى صبغتها الشمس . . وتلك النظرة الشاردة التى اتنى خلال أيام التجوال ، وحمل صناديق الذخيرة ، وتنظيف « الهاون » . وسط نظرات تندس فى الرمال العقيمة . . لأزرع ولائمر . « انعطف . . على الناصية المقابلة أحدثها » الشارع المرصوف عندما يتفرع إلى أزقة يمكنك أن ترى برك الماء تنحسر هنا وهناك عن مكعبات البلاط البازلتى المعتم ، أتذكر تباب الرمل ، وطواير الاصطفاف صبيحة كل يوم ، والأذرع التى تؤدي التحية العسكرية قسراً . . وأجساد الصعايدة المنتصبة تحت شمس لا ترحم . أوامرهم العجولة . . صراخهم . . وطلقة فى الساق . . بركة دم . . تنزلق الخوذة ويهوى الجسد . . « الأوامر يا رقيب زغبى أن نخلي الموقع ونسحب » . . « والله لن أتركه حتى لو سقطت بجواره . . » السيارة الجاز تدير محركها . . يشدنى عبد التواب الزغبى من ذراعى : « إركب يامجنون » . . والظلام ستر وغطاء . أبكى الرجل الذى فتناء . . تنهال القذائف حول السيارة . . تمرق وسط جحيم الشظايا واللهب ، تشق طريقا يحفه الموت .

تعارف :

مدى لى يده بلفافته المشتعلة ، وأجلسنى على طرف سريره الذى صنعه من الصاج المضلع ، وغرارات الرمال . نفخ فى الحفرة بفمه حتى برزت العروق فى رقبته النحيلة ، واحمرت عيناه ، وشهق والدخان يتصاعد تنشب النار فى بقايا خشب متفحم يحركه بيده . . . يخلع غطاء زمزميته من جرابه السميك ، ويصب بعض الماء فى البراد : « أهلا وسهلا أنا سيد جابر » . الإجهاد نال منى ، ابتسم « يبدو أن حضرتك مهندس أو مدرس . . . النظارة التى على وجهك توحى بذلك . » البروجى يقطع حديثه المرح يُخرج رأسه من الملجأ : « حاضر حاضر » يتركنى فى الخندق . أحاول أن اعتدل دون جدوى ، فأقواس الحديد التى تصنع هيكل الملجأ لا تسمح للقامة أن تفرد . . أتابع تجمعاتهم فى هرولة كسولة . والشمس صفراء بلون ثمار المالحجو التى تظل أشجارها أرض الموقع . والطريق على مرمى البصر يظهر ويختفى خلف سواتر الرمال ، ومسطحات زرقاء من بعيد تبدو . . وقد هجرتها طيور النورس . . صيحاتهم الملولة تأتىنى ، تنتزعنى من خواطرى . . أتحس كفى . عشرات الكيلومترات مشيتها حاملا « مخلتى » ، وبندقيتى الآلية وخزنتائى الأربع ، لألحق بالكتية الشامنة عشر على ضفة القناة الغربية . صوتهم يقلقه الهواء مهمهما . . أرقبهم ينصرفون . . يأتى عدوا . . يصفر بفمه لحنا مميزا « ألم تصب الشاى ؟ » يخلع غطاء الرأس . . يمد يده بلفافة أخرى . أرفض . يضحك وهو يمد ذراعه « لا تبتس . . هذا المنزل صار لك . . أتقاسمنى إياه ؟ » .

ضحكته تلون الفضاء المترب وسط عتمة الليل . وجوه الرفاق تبتسم ، تخلع العناء والانتظار « أرقص يا جابر » . يخلع ستورته ويحزم

وسطه .. يجعلهم يصفقون .. يدقون بقبضاتهم على صناديق الذخيرة الخالية .. يهتز فى إيقاع محموم .. يطوح رأسه ، وصوته المتقطع يرتق الصمت : « سيد جابر » . يردون فى مرح : « يا ابن الأكابر » تتسارع صقفاتهم .. يقوس جسده صانعا بجسده دائرة كاملة .. الرأس والقدمان متقاربان .. الشاويش الزغبى بشاربه الكث .. « السرية تكدير .. أوامر الضابط حلمى » . كان الظلام فى الخارج يتوغل فى بقايا الضوء . ونجمة وحيدة رأيتها تهوى ! .

باب :

فتحت لى الباب ، رأتنى فواريته ، ضحكت فبانت سنتها المكسورة ، الوجه فيه نمش والعينان عسلتان . مدت يدها ، سلمت : « تفضل ! » . جاءت الأم . أمسكت يدى . أقسمت أن أدخل ، مددت يدى بالخطاب ، ضحكت فى عتاب : « وهل أقرأ يا ولدى بعد كل هذا العمر ؟ » نظرت إليها استفسر ، فهمت الأم : « خيرية تغير فى كلام الخطاب حتى لاتغضبني » . دخلت وقفت فى وسط الحجرة حائراً . بحثت عن مقعد ، فأحضرت حشية مهترئة وأجلستنى : « كيف حال سيد فى الجيش ؟ » . انظر إلى الجدران التى تزينها رسوما لدياب يطعن عدوه الذى يركب فرسا بأجنحة .. أستدير لأنظر إلى الجدار المقابل . الجير المتساقط لا يكشف إلا عن معارك لأناس تآكلت وجوههم بفعل الزمن .. تقدم لى كوب الشاي . تضحك ثانية ، ارتاح لجلستها أمامى . أحدثها عن سيد جابر وتحدثنى عن دروسها الصعبة . وتحدثت الأم عن زوجها الذى فقد ساقه منذ سنتين بالمصنع الذى يعمل به ، وعن ساق صناعية يطالب بها الشركة دون جدوى : « إكتب لنا شكوى جديدة ؟ » انظر إلى الزقاق الضيق فى غيط

العنب . من النافذة الضيقة انظر . النسوة الجالسات فى انتظار مالا يأتى .
الوجوه المعروقة . الأطفال الحفاة ينازل بعضهم بعضا . يتشاجرون فى ألفة
« الشاى يبرد » . أمسكت القلم ، وجلست أكتب شكواها . . دقات على
الدرج . . دقات موجعة رتيبة . الأب يعود أشعر أننى بين أهلى . الدفء
المفتقد يسرى داخلى : « إريك يابنى » يسعل وأرد « أريك يا عم جابر ! »
يرتمى بجسده النحيل على الحشية جوارى : « عيثنى الشركة حارسا ليلى »
نظرت إلى خيرية ، بحثت فى عينيها ونقبت عن بذور انكسار . لكنها
شهقت فرحة : « مبروك يا أبى » . فتحت علبة لفائفه الصدفية ، قدم لى
واحدة ، أشعلها لى يعود ثقبه . جذبت نفساً عميقاً . حدثت نفسى :
« هذه البنت صرت أحبها » .

قالت الأم : « ومتى تستلم عملك الجديد ؟ » . نظر إلى الفارس
المطعون . تنهد : « سأرفض ذلك العمل . . هل سمعتم عن حارس بساق
واحدة ؟ »

حزن :

لماذا تبكين يا خيرية ؟ « يهتز جسدها ، يتهدج صوتها ، وأشعر بسخونة
دموعها ، تستند برأسها على صدرى : « أخاف الغد . أخاف أن أفقد هذا
الحلم ! » . تقترب من حاجز الأمواج . . الرذاذ الملحي يعلو الرؤوس .
أتمتع بمشاهدة تلك الموجات المتكسرة على الصخور القريبة ، يمر بياع الليرة
المشوى . أتذكر العودة فى الغد إلى الدفرسوار « « إحمل القاعدة » « ضع
الماسورة » . . « صوب المدفع فى أقل من ثلاثين ثانية » . . « هل أصبت
الهدف ؟ اقترب من الموقع وحدد الخطأ » . . « قائد الكتيبة قرر حرمانكم
من الإجازة الميدانية » .

عندما رأتنى بشعري الحليق ، ضحكت . نوبة من الضحك استولت عليها ، وكلما تماسكت . نظرت من جديد وعادت تضحك ، لما سألت السبب قالت : « كنت أريد أن أرى أخى سيداً حليقاً » . عندما عدت وأخبرته بما قالت . كشر عن وجهه . صاح بى : « لو ظللت عشرة أعوام بهذا المنظر مائزلت إجازتى » . صرت ياخيرية واحتى التى أستظل بها فى هجير الوحدة والمعاناة !

حسرب :

كانت دبابتهم تتحرك على المدق الجيرى أسفل التبة ، صوب سيد جهازه ، وأدريت المقبض فتحركت الماسورة بضع بوصات يسارا . الطائرات تغطس فى الغرب وتنقض على مواقع الرفاق . يده اليمنى تشير للطاقم أن يستعد . صناديق الذخيرة متناثرة من حولنا . الشاويش زغبى أنزل يده ، فانطلقت القذائف . استدارت الدبابة فى صعوبة موجهة ماسورتها تجاه موقعنا . انفجرت القذيفة الأولى فى بطن التبة . تناثرت الرمال المحترقة من حولنا . ملأت رائحة البارود الأنف والعيون . انحرف المدفع وسقط جهاز التصوير وتآكل إطار العدسة المطاطى الأسود . كانت « الباتون » تقترب حثيثا . فاعمل حسنى رشاشه الخفيف . انطرح جسد قائدهم من البرج ، وجهاز اللاسلكى يتدلى من صدره ويتأرجح . والعبرة التى لا نفهم منها حرفا تصل إلى مسامعنا فى نبرة انزعاج .

هرولنا إلى الموقع التبادلى ، تاركين المدفع الذى صار غير مؤثر فى التعامل مع مجنزراتهم اللصيقة بحفرنا . قرأنا الشهادة . . وصوب كرم قذيفته (الفهد) فاخترقت الفولاذ وانفجرت . . كانت كتل اللحم اللزجة تختلط بالصلب وسط انفجارات متوالية . ورائحة الدخان تحيط بالموقع .

أخرجت صورتها . تأملت العينين ، ورائحة اليود تأتي عبر المسافات تقبض
بيدها على يدي . أشم رائحة عرقها وعطر فواح . . . قذائفهم تنهال علينا . .
مواسير المدافع تضرب في جنون وددت في هذه اللحظة أن أذهب إلى غيط
العنب . أجلس على الحشية وأشاطرهم أحزانهم العميقة . كانت طلقاتهم
تخرجني من أحلامي المحلقة ، وتقذف بي في جحيم الحرب ! .

اقتربت جنازير دباباتهم من أجسادنا ، وهدرت من حولنا . دانة
انفجرت وأصابت الموقع إصابة مباشرة . قذفت بجسده النحيل . انطرح
على ظهره يئن « آه . . آه . . » . . « قم ياسيد تحامل على نفسك »
« آه . . آه . . » . . « استعدوا لمغادرة الموقع » كانت ساقه تتزف ، والدم
يتسرب بين ذرات الرمال . . خلعت (ضلع الهايك) وربطت الجرح . لم
يتوقف التزيف . الضابط حلمي وقد فقد خوذته أمرني بحمل المسند .
الشاويش الزغبى ربط الماسورة على ظهره وزحف . . كانت القاعدة قد
غاصت في الرمال ، وانحشرت : « اتركها ياكرم . . اتركها » . لكن كرم
انتزعها وزحف هو الآخر : « لترك المسند ، لترك الهاون بكل أجزائه . .
لكن سيد . . سيد » حتى الدموع لم تذرفها عيني ، ولا أعين الرفاق ،
لأن الموت الذي كان يحاصرنا ، ودببيه الذي سرى في عروقنا قتل في
داخلنا الإحساس بالأسى . السيارة الجاز في الخلف تدير محركها . مد يده
الغليظة . كاد يصفعني « اقفز ياغبي . . ياابن ال . . » . جذبني والمسند
تصلبت يدي عليه ، والدبابات لاتكف عن قذف حممها . وصوته الأليف
يأتيني ، وجددتني أبكى ، دوئها دموع . كنت أئدب والسيارة تتحرك في
صعوبة على مقربة من حقل الألغام بايقاع جنازرى راقص « سيد جابر . .
يا ابن الأكابر » .

أسـر :

يرقد غائبا عن الوعي ، وعندما يفتح عينيه يفاجأ بالضمادات تحوطه ، وبرائحة المطهرات تنفذ إلى أنفه . يده القابضة على ملاءة سريره ، عالق بها ذرات رمال . تقترب منه إحداهن ، تبسم ، يجاهد ، يحاول أن يتسم . لكن اللكنة الغريبة والابتسامة المصطنعة تجعل ابتسامته تشحب . يحرك فمه محاولا الصراخ تقترب منه بزيها الأبيض المنسق : « ممنوع » تقولها وهي تضع إصبعها السبابة أمام فمها الواسع النهم . يعرف أنه الأسر ، ونسائم الصباح تحرق رثيته !

وقتها ، كانت الحرب قد توقفت . بدأت كتيبتنا تحصى خسائرها . سيد جابر فى عداد المفقودين . كلفت أن أبلغ أسرته بذلك فى الأجازة الأولى بعد توقف القتال . قبل أن نركب الجار انحنى الزغبى على الجسد النارف . خلع ساعته وخاتمه الفضى ، ثم شال بندقيته ، وقفز فى العربة الجار . مد يده بالتصريح ، وبالظرف الأصفر الكبير الذى يحوى متعلقاته . بعد أن وقع فى الكشف الشهرى أعطانى نصف راتبه وكذا فعل أفراد الطاقم . كنت أحمل فى أنفى تلك الرائحة التى صارت لاتفارقنى : البارود المختلط بالرمال الخشنة ، طعم الدم والجوع والفرع . أفرولى الكاكى به بعض القطوع . وبيادتى التى لم أخلعها ليل نهار أشعرتنى بالضيق . أنتهت الحرب . الوجوه من حولى فى محطة القطار منبسطة . والعيون مفتوحة تبخلق فى البنات المشوقات . وأنا أحمل نصف أحزان العالم . كيف أخبرهم ؟ ألقى بنفسى فى العربة المواجهة لى قبل أن تسكن . المقاعد كلها مشغولة . . آت من الجبهة . . ألا تشمون رائحة الموت . . البلادة المحها فى الوجوه . الحقول الخضراء تمنحنى بعض راحة أفئقدها .

أسير فى الأزقة المتقاطعة المنقوعة بيوتها فى بركة آسنة من الفقر والرضا . اقترب من المنزل . ماذا أقول لخيرية ؟ . الدرج الخشبي أصعده . حزنى له ملمس خشن يمزق داخلى . على العتبة الأولى نسوة يعرفننى . يشهقن عندما تقع عيونهن على : « أين سيد ؟ » أدق بقبضتى الباب الخشبي المتسخ . . خطواتها المسرعة تقترب . . تفتح لى . . بلا وعى تحتضنى ثم تبتعد خجلة . الأم الجالسة بالداخل تتسع عيناها . ثم تنخرط فى بكاء مرير : « أين سيد ؟ » أستند إلى الجدار . يغمز لى دياب بعينه . يلكر فرسه الأشهب . يرفع رمحه المسنون ، يصوبه نحو الأشرار . ثم يتنزع سيفه من جرابه ، يلمع فى وهج الشمس . يحركه يمنة ويسارا فتهدى جثث الخصوم . تجلسنى أم خيرية بجوارها . « لماذا لم يحضر ؟ » الجير يتساقط فينكسر السيف . وخيرية شعرها الأشعث يخفى الوجه الباكي . تصلنى نهبتها . . تركناه يتزف . . كانت دباباتهم تحوط الموقع . . حاولت . . حاولنا . . لكن ! . . تقترب خيرية وصوتها يتشرب بالأسى : « مات » . قلت : « قد يكون فى الأسر » . بكت : « وقد يكون حفنة من تراب . ألم تكن معه . لماذا تنكر موته ؟ » . الأب ودقاته بالساق الخشبي ، يدخل من الباب الموارب . . يرت على كفى ، يلوح بمظروف أصفر باهت : « اطمئنوا . سيد حى يرزق . . تلك رسالة الصليب الأحمر » . تقفز خيرية فرحة . تنهه الأم . التفاؤل يمتزج بشجن خفيف . . أخرج وحدى .

سفر:

كان صوتها ، مبحوحا ، استبقت يدى فى يدها للحظات ؛ « لاترحل » . . كنت قد حجزت تذكرة السفر فى جيب بنطالى الذى ارتديه . والنقود التى استبدلتها ، وعنوان ابن خالتى « هند » بالدمام . .

البحر عار أمامنا ، وشيشه الأليف يحتوى صمتنا . كانت الكلمات نافرة
مدبية مبتورة . خرجت من الحرب لا أملك من الدنيا إلا ذكريات
كالجرح . حاولت أن أهرب من نظرة عينيها المتسائلة . مندفعاً كنت إلى
عالم غنى بالنفط والبنكنوت . يتقذنى من فقرى الذى ورثته أبا عند جد . .
جففت بمنديلها الحريرى الأبيض . . رذاذ الأمواج الملحية . سرحت شعرها
المنسدل بنعومة بأصابعها الطويلة . نظرتها حزن ومهابة . . أريد أن
احتضنها ، أشعر أنها تريد . لكن ذلك الصمت المنهك وحركة الأمواج
الشفيفة ، والزبد الذى يتكون ، يتقلب كحزننا الأبدى منعنا ، وكبل فينا
المشاعر : « صباح الغد أسافر » . . انحناءة عنقها واهتزاز صدرها : « لم
نكن لنستطيع أن نبقى طوال العمر . . نسير فى الطرقات متشابكى
الأيدي . . نأكل الذرة المشوى . . والعمر يتقدم ! » حدقت فى وجهى ،
لاتفهمنى خيرية . تخطب بيدها الحاجز الصخري . الخلاء من خلفنا . .
والسيارات تمرق مشيرة عفار كثيف . . هدير أمواج البحر رتيب : «
أتذهب بعد كل هذا . . الحب ؟ » غلالة الدموع واثين مكتوم : « من
أجلك أسافر ! » .

عودة :

سنوات بعيدة ، مرت وعرة ، هشة ومتصلبة أيامها داكنة الملامح ،
وغامضة لياليتها ، متناثرة أحداثها ، ممتزجة بشجن صوفى عميق . سيد
جابر الذى فارقته وفارقنى صارت بيتنا جفوة بعد مودة . أطياف الأمس
تجتاح المساحات المعتمة فى قلبى ، فتير روحى . أرضخ للأحزان وبها .
يرتعش حنينى . . ضباب كثيف يحوط أيامى الفاتئة . . وخيرية شذاها
يطوقنى . . تلك الأيام الرمادية التى انقضت لم تزل تحفر داخلى أنهار

شوق .. تبدلت السنون ، وعرجه الخفيف يثير فى نفسى الوجع ذاته . غيظ العنب الحى السابح فى سواد حالك بلا ضوء نحيل يخترق ذلك السكون . تمرق طيور النورس وأنا أعطى وجهى للنسمات الطرية الطازجة . يحاصرني ظمأ قديم .. ذات السنة مكسورة تأتي من البحر يقذفها الموج المتلاطم تضع يدها البضة فوق يدي . ضحكاتها الصافية . ذهبت ملتفا فى معطفى القديم . نقرت الباب بإصبعي : « تفضل » . أدخلتني حجرة « صالون » مذهب بعد أن سلمت على فى ارتباك يشوبه فتور . أجلستنى فى ود مصطنع ، لم تفتح ذراعيها لتحتضننى . منذ سنوات كانت تفعل . انكسر حلمي .. انكسر .. تأملت الطلاء وقد غيب خلفه النقوش القديمة . رائحة الزيت تزكم أنفى . جلست على المقعد البعيد . لم تضحك ، فلم أر سنتها المكسورة . وغاب النمش وراء طبقة البودرة : « حمدا لله على سلامتك ! » . كلمات قيلت كتأدية واجب . ملمسها قذف بالكرب يحتوينى . يحز فى روحى . تمليت وجهها . آه من البعد يا أحباء : « إشرّب كوب الشاي » . الأم الطيبة تمد يدها ، تقصينى أفكارى المشتتة عن اللحظة ، أطرق . تنظر إلى وجهى غاب الخجل القديم : « متى عدت ؟ » تدبر فى إصبعها « الدبلة » الذهبية ، تديرها ، أركض فى المسافات الوعرة . أطلق أيها الحزن روحى المجهدة .. يدخل سيد جابر .. يعصرنى شوقا . يحاول بابتسامته المرححة أن يخفف عذاباتى . الظمأ يجفف روحى .. « إحمل القاعدة » .. « ضع الماسورة » .. « صوب المدفع فى أقل من ثلاثين ثانية » الظمأ .. الظمأ .. آه .. آه .. « قم يا سيد » .. الشظايا الملتهبة .. انفجارات الدانات تمزقنى أشلاء .. الملم ذاتى .. هذا إصبعى البنصر .. وهذه أذننى .. تلك رئتى .. قطعة من القلب

الممزق .. الملم ذاتى الدامية النازفة .. أخلعها من ذوات الرمال التى
لصقت بها .. لكن دانة أخرى تقذف بالجسد النحيل .. جسدى .

السفر خلف سراب النفط الملمى معى ياخيرية .. أعرج يا جابر
وأنقلدنى .. رمح دياب ينغرس فى صدرى .. أنحنى ثانية الملم ذاتى ..
المثقلة بعذابات سنين جافة قفراء . ثقت الرصاصة الخوذة .. الملم أحزانى
المغسولة بالتعب .. أشتاق البحر .. البحر !

٢٤ ساعة

(إلهى وأنت جاهى . . تنصر بلدى على مين يعاديه وتخلى الزرع زاهى . . ويسيل النيل ع النخل ويسقيه) .

بعض ما ترنم به صاحب هذه السطور قبل عبور العساكر مياه القناة ويجدر التنويه بأن الأحداث المذكورة مرصودة من الذاكرة ومكتوبة بعد إنتهاء الحرب بأربع عشرة عاما بالتمام والكمال . . ياسادة ياكرام ونستمحيكم عذرا إن حدثت بعض الأخطاء غير المقصودة فى تسلسل الأحداث وتفصيل الوقائع . . فما جرى فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ يحتاج لتسجيل بأحرف من نور وشظايا و . . صلوا على النبى المختار . . اليوم السادس من ذات الشهر .

١ - الساعة ١ صباحا :

رجعت مع أول ضوء إلى فصيلة الم . ط . عند بوابة النقطة استوقفنى العريف توفيق قبل أن يسلم نوبتجية الشينجى ، أنزل « الزنط » فبان وجهه متهللا على غير العادة ، سألنى بلهفة : هل معك سجائر ؟ هزرت رأسى بالإيجاب فاغتاز ومد يده فقدمت له سيجارتين . سألنى ثانية : : والأكل الملكى ؟ حدجته بنظرة مستطلعة : نحن فى رمضان ، أنسيت ؟ قال : سأحتفظ بكل شئ حتى ساعة المغرب . الفصيلة لن تترك معك غير الأفرول . لو كان يؤكل ماتركوه !

كان الجنود قد بدأوا فى احتلال مواقعهم خلف المواسير كعادتهم كل صباح ومع خيوط الفجر الأولى ، ينفضون الكسل والنوم ، صباح بى

عبد النعيم مشيرا بيده : الخطابات .. أين ؟ جرى ناحيتى والموقع يتفض
آخر آثار الاسترخاء . وخلفى رجال سرايا المشاه يتدافعون ناحية حفرهم
ومصاطب الدبابات فى المواجهة كأنها تصوب مواسيرها نحوى .

٢ - الساعة ٧ صباحا :

رفعت الحالة إلى أقصى درجة .

كان رجال الإشارة يتلقون الأوامر . ويفكون الشفرة ، عرفت أنها
مناورة كل شتاء . حمدت الله أننى رجعت من أجازتى صباح اليوم
للمشاركة لاحظت أن الأجازات أوقفت ، ورفض المقدم صلاح اعتماد
أورنيك عيادة . قال لصبرى الطحان : انتظر فى الغد يكون الفرج !

٣ - الساعة ٨ صباحا :

جاءت الأوامر بالافطار . رفضت الفصيلة إلا مصيلحى الذى رفع
زمزميته نحو فمه وراح يعب الماء عبا . ضربناه كعادتنا فى مرج . بعد أن
انتهى صوب نظره ناحيتنا : بكرة قطرة الماء تصبح عزيزة .

٤ - الساعة ٩ صباحا :

جهزنا شدة الميدان كاملة ، ورجال قذائف « الأفعى » احتلوا حفرهم
العميقة . تذكرت منازل الإسماعيلية المهدمة . والشوارع الخالية ، وأنين
الأوتار المشدودة لرجال « الأرض » يعزفون على السمسمية « وعظم
أولادنا .. نلمه نلمه .. ونعمل منه مدافع .. وندافع .. » بالأمس
رفض بائع البليلة - فى حى العرايشية - أن يأخذ مليما واحدا . قال :
أدفع معى هذه العربة حتى الناصية المقابلة ، ربنا معك أنت تشبه ابنى
مصطفى الخالق الناطق . إنه فى سلاح البحرية . غواص ابن غواص .

أتعرف أنني عبرت المانش فى شبابى . ضحك فبانت أسنانه السوداء
الهمة . مضيت أترنم بالأنشودة : « .. وعضم أولادنا » .

٥ - الساعة ١٠ صباحا :

وقع عبد المسيح فى حبائل بركات . طالبه بأن يدفع فورا كل ما
اقترضه لأن الحرب على الأبواب . وإلا ما معنى أن توقف الكتيبة
الأجازات . ويعيدوا من قيادة اللواء كل المساجين . قال الملازم عبد الغفار
لبركات : لاتخرف . اترك الرجال يرى شغله . كان الوحيد بيننا الذى
يمسح حذاه كل يوم وكأنه مقدم على فرح . قال عبد المسيح : هذا الولد
- بركات - كلامه صحيح . تعالوا . أصدعوا برج المراقبة . سيارات
اليهود تعدو فى كل الاتجاهات و « أبو جاموس » طلقته والقبر !

٦ - الساعة ١١ صباحا :

صرفوا لنا التعيين الجاف ، ومعلبات الفول كانت متوفرة . صباح
بركات : الطعام الوطنى . سمعه الملازم عبد الغفار قال : أحمد ربنا ، فيه
كل البروتينات اللازمة . ضحك رجال الموقع وبركات يقول « نفسى فى
اللحم يا فندم » . بالتأكيد هناك فرق !

٧ - الساعة ١٢ وخمس دقائق :

رأينا رجال الصاعقة فى ملابسهم المدنية يصطادون سمكا من القناة .
مصيلحى تنحنح : لا حرب يا أولاد . السمك فى القناة والعساكر تصطاد .
قلت له : لا أفهم شيئا .. همس عبد المسيح : لقد رأيت بالأمس ليلا
أجزاء من الكبارى المعدنية ، وسترات الفلين ، وزوارق المطاط . هل
رجعوا فى كلامهم ؟ تجهمت الوجوه ، وتصلبت الأيدي على المدفع .

٨ - الساعة الواحدة والرّبع :

أدار مصيلحي مؤشر الراديو . سمعنا سعاد حسنى تغنى : « الدنيا ربيع والجو بديع » كانت أمطار خفيفة تسقط لدقائق . وشدات الميدان تثقل ظهورنا . ارتفع صوتها : « قفل لى على كل المواضيع » . قال صبرى : هذا هو المطلوب تماما . تعالوا نلعب . ملك أم كتابة ؟

كان الترقب ثقيلًا وعمّضا . هناك فى السكون شيء لاندركه . التقط أنفاسى : انظروا خلفكم القوارب السوداء ينفخها رجال السرية الأولى . ومدافع الهاون محملة على ظهورهم . اعتقد أنها الحرب . مرّ المقدم صلاح على المواقع . تفحص المدافع . ربت على كتفى : شد حيلك يابطل تضاحك وعبد السميع : أوافق أن أقرضك مدفعا !

٩ - (الساعة الثانية و ٥ دقائق) :

أحترق الصمت أزيز طائرات منخفضة ، سقط قلبى بين أقدامى . قلت لنفسى لقد اكتشفوا كل شيء وبدأوا هجومهم . لكن سحابات الغبار ، وحرائق هائلة على الموقع المقابل بالضفة الشرقية مسحت فرعى . كانت طائرات « السوخوى » تغطس ويبتلعها الأفق ، والجحيم طاقات مفتوحة تقذف حممها ، إرتفعت أصوات الأطقم مجلجلة . بدأ سلاح المهندسين فى نصب معابر الدبابات العملاقة ، ودوى القصف لا ينقطع . كل شيء بدأ كالحلم الجميل الذى لا يخلو من خشونة - صوت عبد المسيح خافت يرتل ، وصبرى يقفز كالطفل مزهوا بالمفاجأة . تندت عيناى بالدموع . تسللت يدي إلى مصحف صغير قدمته لإختى فريال لى ساعة العودة . صرخ فينا المقدم صلاح : استعدوا ستأتى طائراتهم للانتقام .

١٠ - الساعة الثالثة وست دقائق :

لم تظهر طائراتهم بعد : سرايا المشاة تتدفق فى أعداد كبيرة . رجال الصاعقة حملتهم طائرة هليكوبتر نحو العمق . انفجرت بالقرب من مخازن الذخيرة دانة عملاقة . هتف الملازم عبد الغفار . سليمة الحمد لله ! أكاد أنشق غيظا . كل الجنود من سرى الم . د والهاون والمشاة عبروا . حتى رجال التعيينات والشئون الإدارية وأفراد المؤخرة . أنهم يضعون أقدامهم الآن فوق رمال سيناء . عدلت البيادة وشددت الأربطة ، ولاحظت أن الرادار يمسح سماء المنطقة فى دورانه المستمر ، لكن أين طائراتهم ؟

بُم . . بُم . . قذائف هائلة ، والفاتشوم تبدو كنقطة فى الفضاء البعيد . لم تكن مدافعنا مؤثرة فى الضرب على الهدف . صوب رجال « سام » قذائفهم الصاروخية ، وما هى إلا لحظات حتى تحولت الطائرة كسهم نارى له ذيل كثيف من الدخان . ارتطم الجسم بالأرض ، ورأينا قائد الطائرة ومساعدته يهبطان بالمظلة . اندفع مصيلحى تجاههما . زعق المقدم صلاح أن يرجع : ليست هذه مهمتك . رد فى توتر : أريد أن أرى جنديا منهم ، سيكون لى حساب معه !

١١ - الساعة الرابعة:

كانت الأسراب تتوالى ، وبدأنا الاشتباك مع طائراتهم فى كل طلعة . . أفلح الطاقم فى إسقاط طائرتين وإصابة أربع طائرات إصابات مؤثرة . ووسط لحظات الزهو ، أحسست بماسورة المدفع تتحول إلى قطعة من النار الموقدة . يشير لنا رجال المدافعية وهم يتقدمون لاحتلال التباب فى الجهة الأخرى بأصابعهم إشارة النصر .

عاد مصيلحي بأسير وقد عصب عينيه وقيد يديه بحبل غليظ . دفعه أمامه سألناه : أين الآخر ؟ قال بفرحة طفل يلهو بلعبة أخذه رجال المخابرات منى قسرا وصممت أن نحتفظ بهذا الأسير إنه لا يعرف العربية . ركله فى غل : لماذا أتيت إذن ؟

أتى المقدم صلاح ، وراح يحدث الأسير بالانجليزية ، ثم كلف الرقيب حكمدار الشئون الإدارية بتسلميه لقيادة اللواء . ضحك مصيلحي ليس قبل أن نسوى الحساب الذى بيننا .

قال المقدم صلاح بصرامة : إتركه يامصيلحي :

تركه بعد أن أشبعه نكاتا . تشممه وقال : أتستخدم صابون فنيك فى الاستحمام يارجل ؟

١٢ - الساعة الخامسة :

نبحوا فى تثبيت العلم أعلى الساتر الترايبى البليد ، رفعوا الكلاشنكوف ورقصوا طربا كانت ملامحهم غير ظاهرة ، لكن سمرتهم النيلية تخطف القلب .

ستبكى أمى كثيرا هذه الليلة . تصعد إلى السطوح ، تضع فتات الخبز للدجاج فى انكسار ، ثم تركن خدنها أعلى يدها المعروفة . تنظر إلى السماء ساهمة شاردة . ستهبط الدرج دامعة ، ترتدى جلبابها الأسود الفضفاض وتحبك ملاءتها الحريرية بلونها الرصاصى الحائل ، وتنزل « البيشة » الرقيقة على وجهها . تذهب إلى فريال قلبى على الولد . أديرى مؤشر الراديو . ماذا تقول البلاغات ؟

طرقات لحوحة على الباب ، يدخل زوج أختى ، يهش لرؤيتها ،

يخفف عنها ، تشهق قلقة : « هل عندكم صورة لفتحى ؟ تبلل الاطار
الخشبى المزخرف بدموعها .

١٣ - الساعة ٦ مساء :

بدأت العتمة تزحف فى ببطء هجوم الميراج مع آخر ضوء ، نترقب
طلعاتهم وأفواج لاتنقطع من المشاة والسرايا المساعدة ، وارتال المدرعات
بدأت تتجه إلى الممرات الموحلة . الكل يتحرك فى زهو مشوب بالوجل .
أصوات الانفجار لاتنقطع . أستطيع الآن تمييز قذائف المدافع المختلفة .
أنتابنى هاجس غريب وأنا أحكم الخوذة على رأسى ، وأشد الرباط الجلدى
أسفل فكى . ماذا لو أن قبلة من تلك التى تسقط فى الأمام أو الخلف
تطيح بالموقع . الموقع الذى صرت أحفظ أدق تفصيلاته ، تسلل إلى ذهنى
عم عويضة بساقه الخشبى ، وجلسته أسفل السلم ، وحوله كلابه الأليفة
تتمسح فى ثيابه ، وتبحث فى الساحة عن قطط الحى لتبدأ نوبة الخريشة
والعراك بدرية معتادة . جذبنى صغيرا إلى مقعده الخشبى بعروقه البارزة
والتي كنا نجمع منها الصمغ ونصنع للعصافير فخاخا .

تخللت أصابعه الخشنة شعرى ، معى صديق وعرفة ومتولى . خلع
ساقه وأسندها إلى المقعد ، قال : « طارت ساقى فى حرب ٤٨ » ..
حاربت مع الضبع الأسود . بثنا فى قلوبهم الرعب . كانوا يفرون أمامنا
كالخراف المذعورة . وفجأة أتوا لنا بالذخائر التى اعتلاها الصدا . لا أعرف
كيف حاصرونا فى الفالوجا ؟ نحن شجعان بالفطرة ، لكن تأتى الرياح بما
لا تشتهى السفن ! » .

أى رياح ياعمى عويضة . الآن يأخذ رفاق السلاح بشارك القديم .
أتحسس ساقى بين الدهشة والفرع !

١٤ - الساعة السابعة والربع :

منذ نصف ساعة أفطر الصائمون بعد موعدهم . كانت الحرب تشغلهم ، وفجأة انتبه بركات للأمر . إرتج الموقع بقذيفة الألف رطل . أنزلت يسار التبة ولم تنفجر . كبر صبرى الطحان فصلينا خلف الملازم عبد الغفار . كان للشمس الغاربة سحر لم نألفه من قبل . بكى العريف توفيق حين داهمه خاطر مفاجئ بأنه سيموت . أخرج من جيب سترته صورة « مرفت » قبل الطفلة بصفيرتيها وألصق شفتيه بالورق المصقول . التف حوله أفراد الطاقم .

لم يهدأ ، بل انخرط فى نحيب مؤثر صرخ فيه صبرى الطحان ، وكان أصغرنا : عيب . أنت رجل . ثم أن شيئاً لم يحدث .

لم يعد للضوء أى أثر بعد أن انسحبت كل الحزم الالامعة . غادرتنا الشمس تاركة ظلالاً مالبثت أن استطالت ثم تلاشت . سمعنا أريز طائرة لم نرها . أعملنا مدافعنا دون توقف ناحية الصوت . سمعنا صوت ارتطام المقذوفات بالجسم المعدنى الصلب ثم أندلعت خلفنا النيران . انفجرت الميراج ، أخبرنا بذلك فرد الاستطلاع بفصيلة مدافع « الهاوتزر » . رقص العريف توفيق : صلاة النبى ، صلاة الزين .

١٥ - الثامنة :

ظلمه ووميض . جاءوا لنا بمعلبات الشراب المثلجة ، فتحناها بطرف السونكى ، ارتشفنا فى تلذذ عصير المانجو . لم نأبه بقطرات تسقط على السترات . كان راديو الترانزستور يذيع مارشات عسكرية .

١٦ - التاسعة وعشر دقائق :

جاءت إشارة عاجلة من قيادة اللواء بعبور القناة على الفور ، والتمركز خلف النقطة الحصينة التي لم تسقط بعد ، حملنا عربة « الزل » بصناديق الذخيرة ، ومدافع الـ م . ط ، والمخل ، وجراكن المياه ، ومكعبات التعيين ، كدنا نترك صبرى الطحان فى المؤخرة ومعه بعض الجنود الجدد ، صرخ فينا وقد ترك بطنه الموجعة : سأتى معكم .

استفسر الملازم عبد الغفار : الست مريضا ؟ أسترخ وستلحق بنا فيما بعد : ضرب قدمه فى الأرض وصوت الطلقات والانفجارات تتوالى : شفيت ولن أترككم إلا بالموت . ضحكت : ياليت !!

١٧ - العاشرة وسبع عشرة دقيقة :

تركب عربة (الزل) . فتهتز أسفلنا مكعبات الصباح المجوفة الطافية على مياه القناة . نحافظ على تماسكنا بصعوبة بالغة . نتأرجح وشىء فى صدورنا يتقاذز كالطائر المحبوس الذى فر من قفصه بغتة .

بالأمس قابلت عطيات . قالت أنها غاضبة منى ، فلم أعد أهتم بإرسال خطابات . قلت لها : المشاريع تستنزف قوانا ، ننام بعد كل تدريب كسمك السردين . ضحكت : ألا تنسى أنك ساحلى أبدا ؟

أمسكت يدها ، ضربتنى برفق : حاسب اقلت لها : الاجازة تنتهى اليوم . غدا أعود للكتيبة . قالت : هانت . أشعر أن غيبتك لن تطول . لقد سرحوا أخى منذ شهرين . يبدو أنكم لن تحاربوا . أخى شحاته يخمن ذلك . لكنهم أرسلوا فى استدعائه بالأمس . أمر محير . نظرت فى عينيها فأخذتنى إلى محطات بعيدة ، وقرنفلات تحوم فوقها طيور رقيقة .

١٨ - الحادية عشرة مساء :

قرأت الأهرام بالأمس . وقعت عيني مصادفة على إعلان شقة تمليك ، ومقدمها عشرون ألفا من الجنيهات . كنت أرتدى أفرولى الكاكي ، وبيادتي . أتزاحم مع الركاب لأظفر بمقعد . الدرجة الثالثة . والباعة يتصايحون بالأمشاط ، المجلات القديمة والترمس المملح وفطير العجوة ، نظرت حولي للوجوه الممصوفة . أمامي عجوز يغفو ثم يصحو . قلت له : أتريد شقة ؟ قال بصوته المرتعش : آه ! .. قلت بصوت أعلى : معك عشرون ألفا من الجنيهات ؟

هز العجوز يديه المعروقتين : يفرجها الكريم . ضحك ونام . بقيت محلقا في الظلام وأشباح أشجار تشرق من نافذة القطار . هزنى مصيلحي : أهبط . أحمل معي هذا المدفع .

١٩ - الثانية عشر مساء :

بدأنا العمل لتجهيزه الموقع . ألواح الصاج تبطن الحفرة الرئيسية ، تصيب العرق ، وأجسادنا كلت : « الهمة يارجال » . المقدم صلاح يعمل بيده معناه . أخبرنا جندي من سرية المشاة الثانية أن النقطة الحصينة لم تستسلم بعد ، وأن المعارك غالبا ما ستكون بالسلاح الأبيض . كان متعجلا ، كأنه في سباق محموم . انطلق إلى مفارز اللواء الأمامية محاذرا حقل الألغام . بعد دقائق سمعنا انفجارا عنيفا . جرى عبد المنعم ناحية الضوء الذي التمع ثم تبدد . عاد شاحب الوجه . بحسرة قال : العسكرى حياتكم الباقية !

٢٠ - الواحدة صباحا :

غفوت للحظة . كنا قد انتهينا من إعداد الموقع ، وتحلقنا مدافعنا . وزرع الرقيب عطوة نوبات الخدمة الليلية . أقسمت حين أعود أن أذهب

إلى بيتها في حارة « النفيس » أكلم أباه . هل يتهرب منى لأننى مجند ؟
هل أخبره بتلك اللحظات التى تتوحد خلالها الذات بالوطن والأرض ؟
أخرجت منديلها الأبيض المطرز بخيوط لامعة بالحروف الأولى من إسمى .
تشممت العطر . آه يعطيات . فى قلبى يمتزج حبك بكبرياء الوطن .

٢١ - الثانية صباحا :

خفت حدة الاشتباكات ، الأنفاس محبوسة ، ولا نوم . مجتررات
معطوبة حولنا زحف عبد المسيح ناحية احداها . عاد بسلك رفيع من
الذهب وبطاقة حروفها عبرية ، وخصلة شعر صفراء : لاتندهشوا ، إنه
رجل . هل يعرف أحدكم قراءة إسمه . مد يده اليمنى بالبطاقة .

رأيناه يخفى باليسرى شيئا خلف ظهره خوذة زيتية اللون ملساء متصلة
باللاسلكى ، يبدو أنها لقائد الرتل . صرخ فينا : لن أعطيها أحدكم .
سأضعها فى حجرة الصالون بالبدرشين . يا عالم يافقر . هاهم اليهود
كرماء . غرقنا فى ضحك متقطع . ثم سقطت قذيفة مضيئة فوق الموقع
تماما . التصقنا بالحفر ، ولم ننبس !

٢٢ - الثالثة صباحا :

الرقيب عطوة يريد كوبا من الشاى ، ونحن نريد ، لكن كيف نشعل
نارا ؟ إن فعلت فأنت تكشف الموقع وتعرضه للاصابة . راح عبد النعيم
يحك جبهته ، ثم قفز فى عتمة الموقع : وجدتها . صحت فيه : ماهى
يا إرشميدس ؟ قال وهو يستفزنى : لا يأتى بها إلا رجالها . أسمع
ياسيدى . علبة العصير الصاج الفارغة ، وبعض زيت المدفع ، مع فتيل
من قطن .

صاح بركات : والضوء يامغفل . قال ببساطته المعهودة : سنصنع من
ألواح الصباح هرما . عيب يا أحفاد الفراعنة . بعد ربع ساعة تناولنا شايًا
ساخنا ودشنا عبد النعيم كبيرًا لعلماء سرية الـ م . ط ا

٢٣ - الرابعة صباحًا :

عادت القذائف تشق الفضاء . وهج وارتطام . رائحة البارود
واللحم المحترق . ديب الجنود المصريين حولنا . صيحات متقاطعة
« أثبت محللك » كلمة سر الليل « قف .. تقدم » « حاضر » .. ا
يا « أومباشى توفيق تمام المدافع » .. « احتياطى التعيين » .. « سطح
اللواء » « أفندم » .. الجراكن ثقيلة .. يخرب بيتك يابعيد كتفى
انخلع .. « رجلى انغرس فى الرمل .. الذخيرة حملها أوقف نموى » .

مصريون من حولك تفرح بهم ومعهم ولهم . مصريون سمر
اللامع . كلهم أحبه صحبة ورفقة سلاح ، وزملاء حفرة . قال
مصيلحى : هيا تتعاقد جمعا على أن نحمل فوق أكتافنا عبء الصغار .
تساءلت : صغار من يامجنون ؟ قالوا معه فى صوت واحد : من يستشهد !

٢٤ - الخامسة والنصف صباحًا :

الفجر يولد . فجر ناصع البياض . طاهر نظيف . الخيط الأول الذى
يعرفه رجال الـ م . ط جيدا . أشباح الظلمة بدأت تتضح معالمها . خلفنا
مسطحات زرقاء بحيرة التمساح ، والمثدنة التى يقع أمامها الكوبرى المعدنى
الذى عبرنا فوقه .

الفجر يولد ومدفيعتنا الثقيلة تقصف بعنف . أتشم المكان وأشمه
ببصرى فرحا نزقا بالعودة . أنحنى وأحضن ييدى الرمل الأصفر كبر لم
ألمسه من قبل . حجر الفلاسفة هو مدفعى يرافق .

مندیلها فى جیبى . أضع فى حفنة وأصره كنزا لا یقدر بمال . جمیلة
عیناها رقیقة كالحلم لماذا تبسمین الآن . ألسـت غاضبة ؟ .. فتـحى .
وجدته أمامى مبتسما : لماذا أنت شارد ؟

وقفت إنتباه : أبدا یا أفندم ، كنت أفكر فى أحوال الدنیا . وضع یده
على كتفى وارتعش صوته بنبرة متفائلة : أشعر أننا سنحارب الیوم أفضل
أستعد أنت ؟

قلت بیقین : بالطبع یاسیادة المقدم صلاح . ضحك ، ثم قطب
جبینہ : أنت کثیر القراءة مثل عاطف ابنی . إنه فى الثانویة هذا العام .
اعتقد أنك لم تـره ؟

ارتبكت : لا یا أفندم . لم أـره . نبرة خافتة : هو یشبهك . لكن
لیس له مثل هذا الشارب . ضغط على كتفى فجأة : هل تخاف ؟ قلت :
بصراحة : أخاف .. لكننى سـعيد لأن الحرب بدأت . المسألة
لا تهمنى وحدى .

كنت بالفعل احتوى المكان .. أشعر أن روحى محلقة خفیفة تعلو
فوق كل التفصیلات .

فى تلك اللحظة أشار لى بیده : أنظر إلى الخلف . كان علما جدیدا
یرفرف بتألق مرتفعا أعلى النقطة الحصينة ، وكانت صفوف الأسرى على
البعد تتقدم رافعة الأیدی . الجنود یهللون والفجر تفتح بالضیاء أكثر .
أعرف أن أمى باتت مسهدة . وأن عطیات تتأمل صورتى الآن . وفریال
ستحدث الأطفال عند استیقاظهم عنى . عم عویضة . وحده الذى سـندفع
نحوى صارخا : « سلامات .. یا ضبع یا أسود ! » .

الكـودي ٢٨

(أ) هي الأبجدية : أحرف وعبرة

نحن نقص عليك حكاية التعب والحرب

أكتوبر : البداية طلقة ، والنهاية حفرة وخوذة !

أول طلقة فتحت ثقباً رمادياً في جدار الذاكرة . استحضرت ليالى الأرق ونهارات الانتظار . أطلقت زفرة وعصافير حبستها في أقفاص الزمن . أتعبتني ياقلب ينبض بالمستحيل . انتبهت على وميض الطلقة الأولى . أوقعتني الهزة العنيفة في حفرة المواصلات . أول الكلمات رمادية اللون والظالم . اقرأ ألفية ابن مالك . أقبض باليدين على جمر الحقيقة إنفض يدك من الأبجدية الملونة . أوطن نقصت خرائطه بوصات وتجمد الدم في أوصاله ؟ أهذا وطنك يافتى ؟ أزهر المدائن والمآذن والعيش الحاف . أرايت كيف يقتل الجوع أرق الشاعر ؟ أصبعك الصغير يخترق جوربك ويطل من حذائك الممزق . أنت تقود المظاهرة ومن خلفك العمائم ، الحناجر تعلو بالهتافات المبحوحة . . أتوابك إلى المكتب البيضاوى ، وتحسست بأصابعك قشرة الماهوجنى الملساء : أعترف .

ابن مالك ينظر من نافذة السجن ، وتظلل وجهه القضبان الحديدية . أيده التى تمتد بالخبز الخشن تمنحك السكينة أم الندم ؟ أيها الرب لاتدخلنى تجربة لا أحتملها . ابن مالك يتحسس الجدران والأقبية المعتمة . أضرير هو أم أنينه المعذب لا يبصر قيدك المعدنى ؟

أمك فى الليل الكحل أنحت بجذعها على ماكينة الخياطة ، أخذت تلضم الأبرة ، وتمر بيدها على العجلة فيدور السير . أنت بكريها والملاذ .

الأب داسته السيارة المسرعة وسقط حقه في التعويض . أول طلقة فجرت
في عقلك المكدود كل الحوادث الأليمة .

(ب) بلغنى أيها الملك السعيد ، ذو الرأي السديد أن الفرنجة عندما
حطموا السلسلة ، وكسروا البرج ، وانزلوا سفائنهم في بحر النيل ، فر
الأمير فخر الدين تاركا الديار والعيال ، وسقطت دمياط بعد طول حصار .
بعد أن عز الزاد تهاوت حصونها . وأنت اغتممت وأصابك الخبر في
مقتل . وأن شجرة الدر قد أخفت مرضك وأخرجت رسائلك ممهورة
بالأمضاء والخاتم السلطاني . حتى أتى من الشام ولى العهد ، وأنت دفنت
في الليل الغطيس بلا جنازة أو موكب أو دموع .

بلغنى يا أصحاب ، يارفاق الخندق ، أن اليهود حين اجتاحوا الرمال
المقدسة ، جاءوا إلى شط القنال ، دلدلوا أرجلهم ، واصطادوا سمكا .
جاءت المجنندات الشقراوات يستحمن في الأزرق اللازوردى . وأن عويس
قد طق مات من الحسرة ، وغيره أصابه الخبل ، وأن عسكرى مصرى
مجهول الاسم والموطن قد فرغ ذخيرة مدفعه تجاه جموعهم المستحمة . ولم
يفعلوها ثانية .

باتت شوارعنا مسهدة ، الإضاءة مقيدة ، وصفارات الإنذار تصرخ
كلما أتت الفانتوم مغيرة ، بلبل قميصى عرق غزير . لم أكن قد دخلت
الخدمة بعد . بطاقتى الشخصية لم يمر عليها سوى أشهر قلائل . يؤبؤ
العين إنطقاً وصوته المتهدج يعلن الفجيعة . بالروح بالدم . . بينما جسدى
الضئيل يصنع نقطة لا محسوسة في بحر البشر الهائل . بدايتى ليست كأي
بداية . بدايتى حزن لايتتهى . برج المراقبة كان قد قصف وتأرجح جسد
العسكرى بالزى الكاكى الممود .

(ت) تغيرت أمى كثيرا ، تعب قلبها الصغير ولم تعد بقادرة على مواصلة العمل حتى خيوط الفجر الأولى كما تعودت . تزايد شكواها من ألم المفاصل تغيرت أنا الآخر . تأهبت مساء الخميس للسفر إلى رأس البر . طويت بنطلونى بعناية وضعته تحت المرتبة ، تقيت ، فى الصباح غيرت رأى تأهت أفراحي الصغيرة تقلب الأولاد على فراشهم . تشابكت الأيدي والأقدام . تاوه شكرى سعل فى الليل . جاءت أمى ، ملأت غطاء الزجاجة بالدواء . قربته من فمه : بالشفاء إن شاء الله .

تخطمت العظام ودبابه الباتون العملاقة تدهس الموقع ، وأحذيتهم المطاطية تنغرس فى الرمل الساخن ولا رحمة . قال الصول جنيدى : كانوا قتلة .

تحسرت على الشباب الذى راح فى غمضة عين . تمتت فى سرى : سلف ودين . تأملت وأنين معذب يجتاح قلبى . وصوت الفرملة يصطك وتنقلب العربة . أكواز الذرة تتناثر . قطع الفحم السوداء . جلباب أبى الأبيض وجاكتته البنية ، خيط دماء على الصدغ الأيمن . تركنا وذهب . ما عاد . تركنا وتنحى . عاد والشيب يزحف فى ضراوة ليملا القلب قبل الرأس !

(ث) ثرى هذا الرجل . بعد أن مات أبى صمم على شراء البيت . قالت أمى : نحن فى حاجة إلى كل مليم ليتعلم أخوتك ، قلت بمرارة : إن بعنا البيت تشتتنا . وافقتنى أمى . مسح بأصابعه شارب الكث هز رأسه : أنتم فى العين من جوه . ثعلب بدهائه ، بنظراته التى تبحث فى وجه أمى عن بقية شباب ، وجمال أقل . صرخت فى وجهه : لن نبيع البيت . ارتعبت عواطف وبكى شكرى قالت أمى : أرجوك . اتركنا فى حالنا الولد عصبى . يعمل فى نفسه حاجة .

ثرى الوطن لايباع . والبيت . الخريطة لا ترحزح فيها علامة أو نقطة
أو خط . ثمرات حلو مذاقها . من حديقة الحاج مختار . أرسل أقفاصا
من كل شكل ولون . تركتها أمى دون أن تمسها . قال شكرى : أذق
المانجو . جاء بعصاه يضرب السلم . اصطنع المرح : كيف حالك يا رجل
البيت ؟ ثعلب أريد سلخ فرائه . يمكر ويحاور . عينه على البيت
والست . قالت أمى : بدون رعل ، لا نريد هدايا . البيع والشراء يفتح
الله . اغرورقت عيناي بالدموع . جلسنا نأكل العيش والمش سعداء .

(ج) جمعنا الرائد يسرى فى خيمة القيادة بفاید . أخبرنا أن تدريب
ضرب النار صباحا السادسة . كانت الشخوص متحركة والضرب بالذخيرة
الحية . جلسنا القرفصاء فى انتظار دورنا . الشدة على ظهورنا كاملة .
والسلاح على هيئة تقاطع . جاءت الأوامر بالتحرك وجذب الأجزاء .
ارتفع العلم الأحمر فأمطرنا الشخوص بالطلقات . لم تكن رمايتى مؤثرة .
استدعانى للجنه الليلي . حدثنى : لم أعود منك أن تكون الأخير فى
الرمية ! ما مشكلتك ؟ جلس وبقيت واقفا جمعت شتات أفكارى : جلسة
المحكمة بعد أسبوعين . إنذار بالهدم . الحاج مختار رفع علينا دعوى
عاجلة بعد أن اشترى نصيب أعمامى . جاعت القطة فأكلت صغارها .
انصرفت . جلسة المحكمة لن أحضرها . اختمر فى ذهنى عمل ما . فى
المقهى جذبت من ياقة معطفه . أمسكت بكوب الشاى الساخن . قذفته فى
وجهه صرخ : مجنون . جسمى يتفرض كله : أنا هناك أحارب . وأنت
هنا تخطف بيتى . إياك أن تهدمه إياك . تدخل أولاد الحلال : لن أهدمه .
اتركنى . أنا راجل كثير الأمراض .

جلس الأسرى القرفصاء وقنابل الألف رطل تطحن أعمدة الحديد
بكتل الأسمنت بالأجساد . وأنت تسرق بيتى يا حاج مختار . جلس ممتقع
الوجه : حد الله بينى وبينك يا شيخ !

(ح) حسدتنى أم صالح لما جاء ابنها بشهادته وكلها كعك « ودوائر
حمراء خبطت سقاطة الباب ، جذبنا الحبل فدخلت قالت : ألا تذاكران
معا ؟ كيف يرسب وتطلع - أنت - الأول ؟ الخائب الذى لن ينفع كايه
قالت أمى : صلى على النبى .

زمت شفتيها ، تركت الشاى وغمغمت : حاجة تفلق . حسدتنى
ولم يقبل المساء إلا وعظمى يوجعنى . ورأسى كأن شوا كيشا تدق فيها .
قامت أمى ترقينى . تأتى بالشبة والفاسوخ ، وز العفريت . المنقديه الملح
يطقطق . على رقعة صباح : « إلهى يشفيك . من كل داء فيك ويخزق عين
الى شفتك .. وما صليتش ع النبى »

تخرم العروسة الورق بالإبرة وتلقيها محترقة . حلم دارنى وأنا اتقلب
على الصباح المتعرج فى موقع السرية الثانية مشاة . رأيت أمى تمسك عروسة
ورقية كبيرة ، تثقبها بالإبرة ومن كل ثقب يتدفق الدم . وضعت العروسة
على منقذ من رمل . وزر العفريت نجمة زرقاء تطقطق . عروسة
تتحول إلى فتاة من لحم ودم . صرخت فقامت من نومى فزعا . مواسير الـ
م . ط مصوبة تجاه الشرق فى يقظة . تنهدت فى ارتياح !

(خ) خجل اعترانى ويدى تسوى شعرها الفاحم السواد . يطيره الهواء
هبطنا الدرجات الصخرية أمسكت بيديها . أجلسها أمامى . العجوز دفع
المركب برفق . حركت المجدفين بانتظام . كانت السحب داكنة . راحت
تحكم الإشارب الكحلى حول عنقها العاجى . قالت تستفزنى : رأسك

حليق كالمساجين ، لكنه جميل . قلت : حين سجنت . كان شعري يصل
للكتفين . تصوري . شدوني منه . قال المخبر : بقى أنتوا عايزين
تجاربوا ؟ أخذ من يدى العلم مزقه : بله ، واشرب ماءه . خفيف هو
الرذاذ الذى راح يسقط فجأة . طوقت بالايشارب شعرها . قالت : لماذا
شروذك ؟

قلت : غنى لى أغنية قديمة . قالت : « الميه تروى العطشان » .
رحت أضحك كعبد الوهاب بوقار مصطنع : اتضحك بالفصحى ؟ خلفى
كان مقام سيدى الصياد ، ونخلة وحيدة : سأقبلك ! رفعت سبابتها
فحازت شفيتها : هس . النخل يزعل .

خلف خطوط العدو فجرنا عبواتنا الناسفة . تعاملت معنا مدفعية
١٥٥ مم . أصيب الملازم طارق فى بطنه إصابة بالغة صممنا على إخلائه .
أزرق وجهه . عدنا فى قارب مطاط والليل يلفنا .

(د) دلونى على السبيل . عطشان ياصبايا . كأرض تشققت من
الظما . والماء ينساب سلسيلا عذبا . طيور النورس ترف على شط القناة
فى حذر تجاه الموقع . طيور بيضاء عندما تطير مبتعدة تبدو كنقطة صغيرة
تذوب فى الأفق . قالت مرفت : لماذا تتفاهل بالنوارس ؟ قلت متأملا
وجهها محذقا فى زهور اللوتس فى ثوبها : دائما ما شاركتنى فرحى !

دفنت وجهى فى شعرها . جفلت فى البداية ثم استسلمت . أحست
بدموعى : لماذا تبكى ؟ كان صوتى متهدجا : فى سبتمبر شىء حزين ،
كنصل سكين ، يشق قلبى نصفين .

وضعت وجهى بين راحتىها : البكاء لا يلىق بمحارب ! النوارس
تخلق ، مقام الصياد ونخلة وحيدة . يدبدب الصيادون بأقدامهم المشققة .
الظما يكاد يقتلنى . دلونى على السبيل .

مواويل أسيانة وطائر نورس حط على مقدمة المركب ثم طار مبتعداً !!
(ذ) ذبحنى الانتظار . هذا دمي ينسكب فوق الخوذات وشباك
التمويه ، ومدافع الهاون وأرانيك العيادة ، وأوانى التعيين . سبتمبر جديد
يأتى ، وأنا لقابعون ، وفى حفر السرية لمنتظرون . . الموت أو الشهادة .
ابتسمت لزناتى ، وهو ابتسم فبان أسنانه بغطاء البلاتين : الموت
أو الموت ! ذهب الذين أحبهم . ذهب مصيلحى إلى بعثة فى كندا ولم
يعد . أرسل خطابا من هناك . فضضت المظروف : كان يضع يديه فى
يدها . بنت كزهرة برية ، لها نصاعة الجليد . قال أنها زوجته . ذهب
الذين أحبهم . فى إجازته السنوية أخبرنى عبد العليم أنه سيتعاقد لعام
جديد كى يتمكن من إحضار السيارة ، والفيديو وأطقم الصينى
والمفروشات . الموت أو الصمت . ذهب الذين أحبهم . فى سرية المدفعية
أخبرنى العباسى أن صالح سعد قد احترف فى نادى الخليج للكرة . وأنه
قد حصل على جنسية القطر . وبقيت مثل السيف فردا . .

(و) رجفة فى القلب ، وزلزال فى عقلى . قالت أنها حزينة .
قلت لعله سبتمبر . حزن شفيف وسمان نجيب محفوظ الحائر . قالت أنها
لا تعرف كيف تبدأ ؟ قلت وأنا أتحسس الفجيعة : لتبدئى من النهاية .
اسقطى كل التفاصيل الصغيرة .

فى كتب التاريخ لا يذكرون أسماء الشهداء ولا بكاء صغارهم
ولا صريخ نسوتهم يذكرون فقط نتيجة الموقعة . نصر أم هزيمة ؟

راوغتني المدن التي عشقتها بورسعيد الصامته والساحل المهجور .
دمياط المتربة وحواريها التي لعبت في طرقاتها صغيرا . الاسكندرية حيث
ترام الرمل ، ویدی تعبث في حقيبة مرفت ، لتخرج قطع الشيكولاته .
مدن أوجعت قلبي بالصمت والمراوغة . رجفة في القلب وزلزال في
مقلتي : لم أعد لك ! رخام بارد قطعته من محاجر نائية أيدي العمال
الصلبة . هو قلبي . تساءلت : ستتزوجين ؟ هزت رأسها : نعم . قلت :
مبروك مشيت ولم تلتفت خلفها . اكتشفت أنني لم أبك . لم أمرغ وجهي
في عشب الشاطئ . فقط أشهدت النوارس أن النهاية لا تليق بمحارب لم
يخض معركته بعد !

(ز) زارني وجه أبي في المنام . سألتني عن أمي والأولاد . خيط
الدموع انساب على وجعتي . امتدت يده تمسح شقائي . عبث بأصابعه
الحشنة في شعر رأسي الخليق . مثلما كان يفعل . سألتني ! أخبرته أننا لم
نبيع البيت . وأن الحاج مختار ابتعد عن طريقنا . وأن شكري قد دخل
المدرسة منذ أربع سنوات . عواطف حصلت على دبلوم التجارة وتعمل في
مكتب محاسب وقور بعد الظهر .

سألتني : كيف حال أمك ؟ قلت : ضعف بصرها وعمودها الفقري
صار يوجعها .

أخفيت عنه كل التفاصيل التي يمكن أن تؤلمه . لم أحدثه عن كسوة
الشتاء التي لم تعد تأتي !

وضع في يدي قطعة حجر ، وذاب في الفضاء على حين بغتة .
حاولت فك طلاس الحجر لم أستطع كان نقشا فرعونيا غائرا . هتف في
منامي : يا أبتاه فسر لي تلك النقوش . وسأكون إن شاء الله من الصابرين .
ذهب وفي القلب حيرة . والأفق حين صحت رصاصي الأنفاس .

(ن) ساعدينى يا ست ياطهرة ، وأنا أمام مقامك منكسر النفس ،
ألق جراحى ساعدينى وخففى عني حزنى . خرجت من المقام وأنفاسى
مكتومة بالبخور الجاوى ورائحة العرق . جذبنى زناتى من يدى : لم أعرف
عنك ذلك الانجذاب للأولياء ! قلت ورأسى تدور : كل الطرق سدت فى
وجهى أين الملاذ ؟

قال زناتى ، وأنا أساند على كتفه : فى البصارطة قرىتى . يلق
النسوة مساميرهن فى جذع شجرة جميز ضخمة . تلف كل منهم خصلة
من شعرها ، حتى ينبثق الدم من المنابت . هن يعتقدن أن الأرواح الشريرة
تذهب إلى غير رجعة . الأسياء ينصرفون ! .

قلت وأنا شبه غائب عن الوعى : رأيت ذلك . قال وهو يهزنى :
لكنهن يدفعن الدماء إلى الرأس بتلك الحيلة . فى الأول من أكتوبر لوح لى
زناتى وهو يعدو ليخفى سلك المواصلات فى باطن المدق الجيرى . هتف
بصوت مبحوح من أثر زكام : تذكر شجرة الجميز . نحتاج لمسمارين .

(ن) شملنى الرائد يسرى بنظرة فاحصة نظر فى ساعته : أنت
جاهز يابطل ؟

قلت وأنا أودى التحية العسكرية : تمام يا أفندم . قال وهو يخفى
قلقه : سنعبّر بعد نصف ساعة وستكون فى المقدمة . سندفع بك إلى
النقطة الحصينة قبل طلعة السوخوى الأولى . المهام محددة . معك فرد
للآر . بى . جى وآخر للرشاش الخفيف . عليكم صنع سائر الدخان وقت
عبور زورق المطاط . أمستعد ؟

لم أملك نفسى من اندفاعى فرحا إحتضتته . رحت أقبله وهو
مستسلم تماما . كدت أحطم قفصه الصدرى . تذكرت فجأة ما لقنت من
عسكرية . عدت كعمود خشب : سأنفذ الأوامر يا أفندم . استدرت عائدا
إلى خندقى بخفة عصفور . شال الحمام ، حط الحمام . كانت أمى فى
شبابها تلتقط أفراخ الحمام الحب وهى تغنى . لماذا أتذكر تلك اللحظة
البهيجة الآن ؟

أبى يقف بعربة الذرة أمام البيت ، ويحمل « المشنة » على كتفه
وخطواته على السلم الخشيبى تحفر فى قلبى عشقا أبديا . شال الحمام ،
حط الحمام . يا لجمال الدنيا فى تلك اللحظة شال الحمام ، حط الحمام ،
سنحارب !

(ص) صفر . الساعة صفر . والسوخوى تمرق عائدة ، وأول زورق
يتزل الماء زورقنا المهمة محددة . صعب هو الانتظار . ونحن ننحنى لنلقى
بأجسادنا فى الزورق . شعرنا بأجسادنا خفيفة رغم ثقل المهمات المقدسة
فوق ظهورنا .

كانت القذائف تدك الأرض هنا وهناك . صعب أن تحمل قلبك كل
هذا الحزن دون أن تنفجر أشلاء إنسان . صعدنا الساتر الترابى والتصقنا
بالأرض . ونحن نرى المواسير تتحرك فى المزاغل . كم هو قريب : الموت !

صائمون ، والغم علقم ، وعساكر الكتيبة كأسراب النمل يزحفون من
خلفنا . رشاشات الفيكور تحصد الرجال على الكبارى . يسقطون ،
يمسكون أجزاءهم المصابة ، ويزحفون .

صعب على أن أستعيد كل شئ والعفرة تختلط بالبارود ، بكل مرارة

الأيام الخوالي ، بفساد الذمم ! فى مدينتى الصغيرة . عفارم عليك يا حاج مختار . صرت ملكا لتجارة الخردة والخيش . تقتل شاربك واضعا الساق على الساق . تدخن وتشرب قهوتك مضبوطة . ونحن هنا نحارب . انكشف الرؤية ، واتضححت العبارة . صفر هى الساعة . وما أدراك كيف تبدو الساعة . فلا نامت أعين التجار !

(ض) ضيعتنى السنون ، وراحت تنثر أشلاى على طول الدلتا والوادي . ضاع حبى ، وخلته قادرا على الإفصاح عن عشق أبدي قديم . تسلل الشيب إلى قلبى . حدثت أمى فى وجهى آخر زيارة : أين ضحككتك القديمة ؟ انكمشت فى ركن الحجرة أمزق الخطابات بأوراقها الملونة : زهور ذابلة !

ضغطت الخوذة على رأسى ، واحكمت سير الجلد أسفل ذقنى ، انطلقت قذيفة الفهد وأطاحت بالمجزرة . فى نفس اللحظة انهالت القذائف علينا . تدحرجنا بأجسادنا فى انحدار التبة الخلفى . تحسست بيدي الحشيش الأخضر الضارب إلى الصفرة . لامست خدى خنفسة سوداء راحت تخرفش فى صمت يمتد بين الطلقة والموت ضالع فى الكتمان . وللحرب سطوة . وعلى بعد مائة وخمسين كيلو مترا تطل من المشربية عيون أعرفها :

(ط) طلقة . طلقتان . طلقات نارية لاتنقطع تجاه الشرق . ودبابات الستوريون ، ومجزرات معطوبة أفراد العدو فى نقطتهم الحصينة لا يستسلمون . طلع البدر علينا ونحن نقاتل . صارت التبة ممثلة بالرجال من كل سلاح . طوقنا النقطة واتجهنا للعمق . طلع البدر وطلعنا تبابا وهبطنا أودية وسقط رجال من الصعيد ويحرق أيدينا حفرت الرمال ومددت الأجساد وأهالت الرمال من جديد .

عصا التشين وخوذة مقلوبة . الفاتحة والأكف المثربة المعروفة بالدبل
الفضية والذهبية تجاه وجه السماء الرمادى . بكى العسكرى زميتى . كان
يخشى الموت ورآه . انكفاً على أول حفرة وبللت دموعه الغزيرة ياقة
السترة . ومع توالى الحفر قل بكأؤه . ثم أمتنع تماماً . طلقة . طلقتان .
وشمس السابع من أكتوبر تشرق دافئة حنونة . والطاغم فقد بعض رجاله !
(ظ) ظللتنا مواسير المدفع . رأيتـه يتجول بين المواقع عفا
كعاداته . مبصراً بشوشاً على غير عادته .

كانت عمتـه هدفا سهلاً لقناصة العدو . خفت عليه : أخفض رأسك
يا أبا مالك .

لكنه حمل ألفيته تحت إبطه واستمر فى تجواله ، يبدو أنه لم
يسمعنى . من بعيد أشار بيده لى : « إن للتوكيد . ليت للتمنى » إن اليوم
يومى يا شيخنا . على الفور تذكرت جلستى بجوار النافذة فى ابتدائية
الأزهر . ويدى تقطف حبات النبق من الفرع القريب . وعصا الشيخ
المعمم . تشير لى . يرتج على القول : لم أحفظ يامولانا . أمد يدي
والعصا هابطة صاعدة .

هى أيام المرح والقلب الخالى والضحك من غير سبب . عمال
على بطل .

ظللتنا العفـرة وشظية عمياء تشق خوذة زناتى وتغوص فى
الجمجمة .. آخر كلماته قبل الموت : لو كان لى عمر سادق مسمارا وانزع
خصلة . قد ينفك نحسى .

ظالمة هي الشظايا والموت جوال ودمك يازناتى فى عنقى . والبصارطة
تفتقدك وفى الغد تضع اسمك على نصب تذكارى فى مدخل القرية .
تأكله الشمس ويسقط بعد أن تنشف « البوية » ظالمة هي الشظايا . . والمنايا !

(ع) علم يرفرف وانساق تلو انساق تتقدم . بأى حال عدت
يا أكتوبر . عارُ علينا أن نأمر مدافعنا بالسكوت . وحدها القدرة على
ترجمة مافى قلوبنا من معان .

قلت لكوثر ونحن على أعتاب الإعدادية : أين منزلك ؟ ردت
بانكسار : فى بورفؤاد : حكى لى عن سقف القرميد وشجرة الفل ونافورة
تتوسط الجنية وقط سياى ويبغاء ملون وخرز يرصع حقيبة نسيتهها على
الحائط . حين ركبت المعدية . تجولت فى الشوارع الخالية إلا من ملاجئ
الأفراد ومواقع المشاة وبطاريات الصواريخ . كان العنوان بورقة فى يدى .

قرأت اللافتات الصاج الزرقاء . هذا هو منزل كوثر . الباب مفتوح
والجدار مهدم . قطعة أثاث وحيدة ومراة مشروخة . بحثت عن حقيبة
الخرز وجدتها بين الأنقاض قطعة من القماش المهترئ انفطر الخرز وطمرته
الأترية . علم ومقاتل وجهها لوجه . بأى حال عدت يا أكتوبر ؟

(غ) غفوت قليلا . كان الأعياء قد هدنى . قمت على يده تهزنى .
الدبابات . الثقيلة عبرت . فتحت عينائى على أرتال الدبابات تتقدم .
غنيت فى سرى لحسن على اسماعيل والمارش العسكرى يتلبسنى :
راجعين ! قلت لمرفت وأنا أقدم لها أول هدية : أسطوانة لموتسارت . هزت
رأسها لا أعشق الموسيقى الأجنبية لا أفهمها . يدى ربت على كتفها
مشجعا : ستتعودين ذلك . وضعت الأسطوانة فى حقيبتها الخوص وبرزت
صورته على الغلاف . إنساب اللحن يعطر أجواء المكان . غرد طائر كنار

أصفر فى قفصه قالت : كم هو جميل ؟ بأسى قلت : ليتهم يفكون
أسره ، ليغرد ألحانا شجية !

(ف) فزعت حين قصفت الطائرات المعبر القريب . تأرجحت
المكعبات الصاج ، وانشقت فامتلات بالماء . طفت الأسماك ميتة على حافة
الشاطئ . استنجد قائد كتيبة المهندسين بنا . دفع الرائد يسرى بأفراد
المؤخرة . فاتنى أن أضع ساعته وأوراقه فى شدة الميدان . خاتم الفضة
بفصه الياقوتى الفالصر ، ودبلة الزواج . قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أشار
لى بيده إشارة فهمتها . فزعت لها . فارقنى بالجسد . العريف شطا . من
غيط النصارى . احتسبت أنفاسه والدانة تخترقه . خلى بالك منهم فزعت
لل كلمات . خلى بالك . من الموت ذعرت . خلى .

« وياخلى ياللى أنت فايتنى

ريتك ماخذت القلب ولاجيتنى

ياملاكى ياللى خطف الروح

ليه القضا افكر ، والدنيا نسيتنى »

(ق) « و . . قد ردت مدفعيتنا على النار بالمثل ، والحقت بهم خسائر
جسيمة فى الأرواح والمعدات » . قل جاء الحق وزهق الباطل . قاهرة :
كم أنت عظيمة ورائعة . غبار المقطم ، تماثيل مختار ، لوحات محمود
سعيد ، مقامات محمد عثمان ، أدوار درويش . تمر الوكالات الأبرمى فى
بولاق . شجار النسوة فى الزاوية الحمراء . ماء الحموم صبح كل جمعة .
غلالة رقيقة فى المساء من ضوء نازل على الشاطئ . صوت الشيخ رفعت
المتلهج بالنور والتقوى . وقد ردت . قالت القاهرة . . للاعداء : أخرجوا

فأنتم إلى الأبد ملعونون . والحقت بهم . الخزي . . والعار ، قالت
القاهرة : إني باقية ، وأنتم مبددون !

(ك) كل شيء هالك . كل البشر فانون . بأسنانك عض إصبع
خصمك . وإن عض فاصبر . هكذا قال فارس عربى قديم . لعله عترة
وحررت قواتنا ، القنطرة ، ورمانة ، والشط . توغلت فى عمق
دفاعاتهم . كان وجه أمى يحتوينى . وروح زناتى تدفعنى أن انطلق .
كيف حال شكرى . وهل يلصق الراديو الحجارة بأذنيه ؟ كيف أنت
ياعواطف ؟ هل تسنين ذقنك الصغيرة على حافة السور ؟

هل تصعدن الآن سلم السطح لتأملى السحب العابرة ؟ كل شيء
انكشف . ماعدت أخشى الموت لكنتى أعرف كيف يمكتنى أن أخوض الحياة !

(ل) ليل الحرب وهج وشظايا . السابع من أكتوبر ليله ممتد . ليل
كموج البحر أرخى سدوله . تعلقنا بأستاره . نبكى أوجاعنا القديمة . قلت
لها أن المنام أزعبنى « رأس جمل تدخل فى ثقب إبرة » مدت يدها
نحوى . دون أن تنبس ربت على كتفى . البكاء لا يلىق بالمحارب .

أرتال الباتون وعامود اللاسلكى يهتز . أسراب الفانتوم تتقدم كغطاء
جوى . ضربة عنيفة فى مفصل الجيشين . الالتفاف . والتطويق . التقدم
والانسحاب . فبت كأن العاديات فرشن لى فراشا من شظايا وجمر . بت
بلا نوم . مدت مرفت يدها ، وفى إصبعها خاتم من ذهب ليس لى
قالت : كل شيء قسمة ونصيب . هزرت رأسى مؤمنا : انقش اسمى على
ماء النهر المقدس . نهر النيل . ليل ضارب جذوره فى قلوبنا الموحجة . تم
تبليغ الإشارة العاجلة : « تم احتواء الهجوم وتدمير رأس الجسر . وأسر
قائد القول الاسرائيلى » .

(م) من علمنى حرفا صرت له عبدا . من علم بلادى الصبر على المكتوب كل هذا الزمن ؟ من علم رجال الصعايدة - أعواد الزان - بناء المعابد بأعمدة تنتهى بتيجان عملاقة ؟

حين انطلق بنا قطار الجنوب ، ودخلنا فى رهبة إلى الرمسيوم ، وجدت نفسى تحت أقدام التمثال العملاق . كنت ضئيلا ضئيلا . أصغر من حجم الاصبع الصغير . الجرائيت الصلب المنحوت فى باطن الجبل . هم محاربوك انطلقوا ليطردوا « العامو » من أوريس . هم محاربوك سيدى توضحأوا بالشمس وباركتهم أذرع أتون الحامية والحنونة . من علمك البكاء ياكوثر ؟

من يدفع ثمن هجرتك القاسية لتعيش أسرتك فى حجرة مدرستى الاعدادية ؟ . . من يعيد حقيبة الخرز ؟ بورفؤاد تطلق صواريخها ، والأسفلت معشوشب بالخضرة . وقط سيامى يختفى وراء الانقاض !

(ن) نختبيء فى ظلال ذكريات الأمس . ناعمة تلك الابدجية أم خشنة ؟ فى أذننى تصطك حروفا كقطيع أنعام بواد ليس ذى زرع . سألنى المحقق . وكوع المخبر تلكزنى : من لصق المنشورات على حائط الجامعة ؟ همس المحقق ، ويده تربت على كتفى بعد أن أشار لصاحب الباطور والصندل بالخروج . انتبه لدروسك . أرجوك . بأبوة لا تليق بسنه الصغير وضع فى جيبى علبة سجائره : العلم للشباب ، والسجن للجميع . نورس ونسنى فى انطلاقتة . أراه من بين مربعات التافذة الحديدية . للزاوية القائمة تسعون درجة . صوت مصيلحي يصخب فى المظاهرة : (مصر مصر تعيش . . والسجن للخفافيش) . هل نبئت لنا أجنحة سوداء وشعر كثيف . قال الضابط محمد عبيد وعجلات الانجليز تطويه فى التل الكبير :

« الولس هزم عرابى . . ثموت وتميا مصر » ! .

(هـ) هل غادر الشعراء من متردم ؟ هلال أخضر يطلع فوق الموقع
ببراعم مورقة . هل تبكى أمك فى حجرتها ، وجدها المحنى فوق ماكينة
الخطاطة ينوء من ثقل المسئولية !

قال شيخ الحارة : « يمكن أن نؤجل تجنيذك حتى يكبر شكرى . »
أخذت استمارة الفرر ، ذهبت إلى الزقازيق . وطابور طويل من السور
الشائك حتى المكتب المعدنى داخل الخيمة : (لائق) . فى المقهى
يقولون : (صاغ سليم) : ابتسامة أخاذا : لا أعرف كيف أشكر . لقد
أعدت لى حقبة الخرز الزرقاء !

عبد العليم أرسل خطاب من جدة . قال أنه أعد لك عقدا للعمل
بأجر مفر . هشت قذيفة الفهد برج الدبابة الأولى . قفز جنودهم
وانبطحوا أرضا . حصدتهم البنادق الآلية تحولت أحلامهم إلى وهم أم هل
عرفت الدار بعد توهم ؟

(و) وضعت الحرب أوزارها سقطت النقطة الحصينة منذ أيام .
استسلم جنود الموقع ، ونقلوا للخطوط الخلفية ، رفعوا الأعلام البيضاء
ومضوا حاسرى الأدمغة ، وقعت النقطة الحصينة فى قبضتنا ، ورفرفت
على امتداد البصر أعلامنا . وقفنا خاشعين أمام جثمان آخر شهيد وارنياء
الرمال . بدأ رجال الـ (U . N) يتخذون مواقعهم . تراشق يومى خفيف ،
وقائمة القتلى اليهود بالعبرية وأسفلها ترجمة بالعربية . جاء الحاخامات
بقبعاتهم السوداء المميزة ، نبشوا فى بطون التباب والحفر . حلقنا ذقوننا
واستحمنا . رائحة البارود لم تفارقنا بعد .

صرفوا لنا راتب شهرين . هل صرفوا لأبى تعويضاً مناسب . الموت
تحت عجلات السيارة ، والموت بقذيفة مدفع . ما الفارق يا رائد يسرى ؟
لم يستقر وقف القتال بعد . تراشق وتبادل قصف محسوب . شهيتنا
مازالت مفتوحة للحرب . وهبنا القتال روحاً جديدة . شمرنا عن سواعدنا
ونظفنا أسلحتنا الآلية استعداداً لجولة جديدة علمنا أن ولداً صغيراً جاء مع
رفاقه لزيارة الموقع . قدم لى باقة ورد وزجاجة كولونيا . زيارة مدرسية
للجبهة لا يشبه شكرى . أخى أسمر ويبتسم كثيراً . خفق قلبى . كانت
تشبه كوثر كثيراً حدثت فى النمش الخفيف بوجهها . قالت لى : حضرتك
تشبه على ! قلت : أنت كوثر .

قالت : لا . اسمى منى .

(ى) يعرف رجال السرية الثانية مشاة من تلك الكتيبة أننى رفيقهم
فى القتال الليلى . يعرفون أننى دفنت مع قذيفة الألف رطل التى أهالت
رمالاً كثيفة . وغاصت فى الموقع دون أن تنفجر . يؤكدون أن عمراً جديداً
قد كتب لى . قلت لمنى : أنت مخطوبة ؟

قالت : مازلت فى مستهل حياتى هذه أول سنة أعمل فيها بالتدريس .

قلت وقلبى يدق بعنف : لا أحب النهايات السعيدة لأننى أمل
مشاهدة الأفلام العربية .

أشارت للأطفال أن ينظموا أنفسهم صفين ردت : لكتنى أحبها .

قلت : منذ سنوات بعيدة أحببت نجيب الريحانى ، وأغنيات ليلى
مراد . وأدوار كامل الخلعى .

لكننى اكتشفت أن الجروح أعمق من أن تلتئم بالكلمات المنغومة .

قالت : نراك على خير . على فكرة لماذا أنت عبوس الوجه .

قلت : رجال النسق الأول نادرا ما يتسمون !

غادرت المكان . حين صار الأولاد خطين رفيعين أسفل المدن . كدت
أهرول تجاه سيارتهم لكننى تذكرت بكل اليقين أن رجال النسق الأول ،
والأنساق التالية عليهم أن يللموا أرواحهم الممزقة قبل أن تستغرقهم الحياة
وتبتلعهم دواماتها العاتية .

شملنى راحة ووجه كوثر يتسم لى .

**كيف
يحارب الجندي
بلا خوذة؟**

كيف يحارب الجندي بلا خوذة ؟

” كان بطلا يغوص فى عمق البحر ويشقب زوارق
الأعداء ويجرهم غرقى .. و !! “ .

١ - العلم :

كان فزاع أول القافزين من القوارب المطاطية إلى الشاطئ الشرقى ،
نظر إلى أعلى الساتر ، وانغrust خطواته الأولى فى الرمال الحبيبة إلى
قلبه ، صاح : اقذف بالسلم الخشبي ، ولا تنس أن تثبت فى نهايته تلك
الخطافات الحديدية . أشار لنا أن نتبعه بينما راح يتسلق السلم فى خفة ،
وكأنه لا يحمل فوق ظهره عشرات الكيلوجرامات من المهمات القتالية ،
مرقت بجوار أذنه قذيفة عندما اعتلى الساتر ، انبطح على الرمال ..
لامست فاه حبيباتها الملساء .. بلا وعى قبلها ، نظر إلى جندي آخر
بجواره .. كان منبطحا هو الآخر ، لم نكن نعرفه إلا أنه ابتسم .. رحف
حتى صار ملاصقا له .. تفوه بكلمات غطى عليها صوت انفجار على بعد
أمتار ، أهملت الرمال فوقنا . قال فزاع للجندي : من أى كتيبة أنت ؟ كان
رده أن ظل يحدق فى وجهه ، وابتسامته آخذة فى الذبول ، فجأة ارتعشت
أطرافه .. كان يتزف بغزارة ، الجرح صبغ الصدر دما أحمر . انتزع
الجريح كلماته الممزوجة بالألم : خذ هذا . ارفعه فى أعلى مكان .

كان الوقت ضيقا .. وهو يعرف أن كل لحظة لها ثمنها : طوى العلم
بسرعة ، ووضعته داخل الخوذة .. نظر إلينا .. أصبح الطاقم متكاملا .
قال لصاير : هل الأجزاء كاملة ؟ أننى لأرى المسند .. رد فى هدوء :
لا تقلق أنه معنا .

- إذن ينبغي أن نتخب أقرب تبة لتكون ساترنا .

انحدرنا إلى أسفل الساتر من الجهة المقابلة ، وسرعان ماشاهدنا دبابة تطلق قذائفها من بعد . كانت تتحرك بجنون وعصبية . . سمعنا صوت انفجار مكتوم ، أعقبته انفجارات هائلة اشتعلت الدبابة على أثرها . تنفسنا في ارتياح ، وأسرعنا إلى أقرب تبة . . انفجرت قنبلة على بعد خمسين مترا ، أطاح ضغط الهواء بزميلنا سعيد . . صحت : هل أنت بخير ؟ هز رأسه في إيجاب ، أسرعنا بتجهيز الخندق الذي سيوضع به المدفع . تم تركيبه في أقل من الدقيقة . . هللنا عندما انطلقت منه أول قذيفة . أخبرنا مركز الملاحظة أن الهدف على انحراف عدة أمتار من اليسار . . كانت القذيفة الثالثة قد دمرت الهدف ونالت منه صاح فزاع حكمدار الطاقم : كدت أنسى . ساعدنى يامحمود سنغرس هذا العلم فى أعلى التبة .

قلت : بهذه الطريقة تكون قد حددنا مكاننا للعدو .

- إذن سأرحف به حتى أقرب تبة ناحية الشرق . لاتوقفوا الضرب .

ماكاد فزاع يثبت العلم فى أعلى التبة المواجهة ، حتى فوجئنا بوابل من الطلقات يتجه نحوه . ظل العلم مرفوعا رغم كل محاولاتهم ، ماعدا بعض ثقوب فى اللون الأحمر ، عاد فزاع يغنى مواويله الصعيدية النيلية الحزينة . . لحظتها أحسنا لها وقعا مبهجا وطعما جديدا .

صمت فزاع فجأة وقال فى أسى : هذا العلم ، لا أعرف هل استشهد صاحبه أم مازال حيا . لقد تركته يتزف .

سكتنا جميعا . كانت لحظتها طائراتنا القاذفة تعود بعد قصفتها الأولى . لوحنا لها بأيدينا .

قال سعيد فى دهشة : أظنكم تعلمون أنهم لا يروننا .

قبل أن نرد ، أنساق جديدة من المشاة المصريين تتقدم ، بينما حاملو القذائف الصاروخية من خلفهم فى وضع الارتكار . ازدادت صيحاتهم عندما رأوا العلم الذى غرسه فزاع ، غرسوا علما آخر فوق نفس التبة من الجهة الأخرى ، لم يصوبوا طلقاتهم عليه هذه المرة . كانت المعركة قد اشتغلت ، بينما أصابت صابر شظية ، راح يربط شندى مكان الجرح برباط الميدان .

اطمأننا عندما عرفنا أن الجرح سطحى ولكن فزاعا حزن عندما رأى رباط خوذته الجلودى مقطوعا . قال فى أسى : كيف يحارب الجندى بلا خوذة ؟

٢ - العودة :

رجع الأب من الصيد عند الفجر ، كان القمر مذبوحا . استقبلته الزوجة وفى يدها « السهارى » ، لحظتها كان الأطفال نائمين ، إلا أنهم سرعان ما أحاطوا بالأب ، وراحوا يجذبون سرواله الأسود المقلّم . . أخذ يتحسس وجوههم فى الضوء الشاحب . . توقف وراح ينظر من الطاقة إلى البحيرة .

قال لزوجته : هيا ننشر « الغزل » كى يجف .

هرولت إلى الفلوكة الرأسية فى أحضان الظلمة والطين ، راحت تجذب الشباك الثقيلة المبلولة ، وتنشرها على ظهر الدار . بينما تتساقط قطرات المياه الساخنة وأخذت تدلك أقدامه .

قالت له : لاتحزن . البحر هكذا . يوما يعطى ويوما يبخل . هز رأسه موافقا .

كانت القوارب الأخرى تحدث صوتا رتيباً وكأنه ايقاع حزين ، حيث تلطم المدارى وجه الماء ، ثم عندما تقترب من الشاطئ ، لاتعد تسمع سوى صرير خافت ، فأعواد البردى الخضراء ، والنباتات المائية ذات الزهور البنفسجية تمنع المدارى من العمل ، فتغرس المدراة فى الطين حتى العمق ، وتزاح القوارب شيئاً فشيئاً ، بينما النورس لاينى يرسم أقواساً وهمية بجسمه الصغير . أشعلت المصابيح الكيروسينية فى كل الأكواخ القريبة الأخرى . كنت تستطيع أن تسمع بكاء طفل آت من بعيد ، وأغان باهتة لحناجر فقدت حماسها . وضحكة خجلى ، وكنت تستطيع أن ترى هذا الضوء الأزرق القانى ، وجه عم عثمان الحزين ، وزوجته أم شهدى التى أرادت أن تواسيه .

- غدا أسرح البحر معك .
- لم نفعلها منذ أصبحت زوجة .
- الولد البكرى ذهب الجيش ، وأنت فى حاجة إلى ونيس .
- ربنا موجود .
- لاتخشى شيئاً . ذراعى قادرتان على فرد « الغزل » وله .
- وماذا يقول الناس ؟
- سيقولون امرأته تساعد .
- صمت ، ونزع قدميه المبلولتين . قالت أم شهدى : قم غير ملابسك وأرح جسدك لقد أتعبتك النوة .

٣ - الضفيرة :

بكت سلوى لأن أمها أجبرتها على أن تجعل شعرها ضفيرتين ، قالت لها أن مرفت صديقتها تترك شعرها منسابا وتضع فى أعلاه طوقا يزينه ، وهى تريد أن تفعل مثلها . ظلت الأم تقنعها بأنها عندما كانت طفلة كانت تطلب من أمها أن تضيف شعرها . وتزينه بشرائط حمراء جميلة ، وأنها كانت تشعر أن كل البنات الصغيرات ينظرن إليها فى حسد ، لأن ضفائرها كانت أطول من ضفائرهن . وعندما كانت تجرى فإن هذه الضفائر كانت تهتز فوق ظهرها ، فتشعرها أنها تمتلك شيئا ثمينا . هزت سلوى رأسها فى عناد وقالت بغضب : أنه شعرى .

خرجت دون أن تشرب اللبن رغم الحاح الام ، ظلت أصابعها الدقيقة ترسم خطوطا متقاطعة على اللوحة المصنوعة من الخوص الأبيض ، متى تحين أجازة أبى ؟

ردت الأم : الله أعلم . تنهدت سلوى وراحت تتقافز الدرجات السلمية ، وهى تغنى « يا شمس يا شمس » ، وفى الطريق وقفت تنظر إلى المنزل المجاور ، كانت عليه رسومات غريبة لجمال تسير وراء أصحابها فى ثاقل ، لكنها أصغر بكثير من تلك التى رأتها ، ورأت الكعبة الشريفة ، وعرفت الطائفة .

قالت لعم محمد بن باع الدوم : هل هذه حرب ؟ كان أصبعها الصغير والعقلات الثلاث يشير إلى الطائفة الرمادية . وابتسم وقال : لا يابتى . أنها لرجوع الحاج بركات من الحج بالسلامة قالت فى براءة : وأين يحج الناس ؟

رد عليها فى استنكار : فى الحجاز بالطبع صمتت برهة ثم قالت :
السويس أقرب إلينا أم الحجاز ؟

فهم كل شىء ، طبطب على كتفها : أنت إذن ابنة فزاع . سيعود
إليك بالسلامة .

وضع قرشا فى يدها ، هزت كتفها فى رفض ، وأطلقت ساقها
للريح .

٤ - البندر :

رفع مغاورى يده فى اعتراض ، وبعد أن مضغ مافى فمه من طعام
قال لها مؤنبا : لابد أن يذهب الطفل إلى الطبيب . صاحت أم صابر وهى
تخبط صدرها فى ذعر : طبيب ؟ !

وما الداعى لذلك ؟ لقد أصابته عين وأنا أعرف كيف يمكن شفاؤه .

قاطعها قائلا : المرض سيقضى عليه ، ينبغى أن نسرع بالتصرف .

ردت بلهجة قاطعة : غدا ، أذهب به إلى الخالة مباركة تعمل له
حجابا .

نفض يديه ، وحمد الله على نعمته . . كانت الشمس فى هذه
اللحظة تتسلل من ثقب واسع فى الجدار الطينى للدار ، لتقع على الجانب
الأيمن من سرير الطفل الخشبى . . .

تقلب الطفل فى فراشه . . وضعت الأم يدها على جبهته . . حاولت
أن تلصقها قدر الامكان بجلبده المحمر . . حدقت فى أثر جذرى قديم .
قالت للأب الذى كان يرتدى جلباب الحقل : معك نقود ؟ أصبحت كلماته

باهتة : ليس معى سوى قروش الدخان ، لاتكفى لشراء منديل يوضع على جبهته العارية تلك .

دارت فى الحجرة بلا هدف قبل أن تقول : وما العمل ؟

قال والضيق يخنق كلماته : لا أعرف ؟ منذ أن مرض وأنا غير متبه لعملى .

كان علينا أن نذهب به إلى الطبيب منذ البداية . حتى الآن لم يسحب أحد البهائم ويذهب بها للأرض . عليه العوض .

بدون أن ينتظر تعليقها خرج إلى حوش الدار ، اقترب منه كلب بنى ضخم . حك رأسه فى ركبته ، هز ذيله ، إلا أن الأب تخلص منه فى عنف ، تناول فأسه من أعلى حظيرة الماشية . . مسح بياطن الندى المتراص عليه . . عاود الكلب مداعبته للأب ، الذى هوى بيد الفأس على ظهره . . عوى الكلب عواء مخيفا وأنسل بين أعواد القمح القرية .

فى منتصف الطريق من الدار للغيط ، شم رائحة البخور نافذة . استدار فى بطاء ونظر خلفه ، تأكد أن أم صابر الآن تقصقص قطعة من الورق على هيئة عروسه ، وتثقبها بالابرة ، ثم تضعها فوق « المنقد » ، بينما ترقى الطفل « بسم الله أرقيك . . من كل داء فيك . . الله يشفيك » .

هو يعرف أنه بعد ذلك سوف يخطو فوق « المنقد » سبع مرات مباعدا ماين ساقيه ، ويعرف أن « السابعة باسم عبد الله » . . لكنه يعرف أيضا أن الطفل لن يشفى مالم يذهب به إلى أقرب طبيب .

لقد وافق الأم على أن يذهبا به إلى طبيب طوال أسبوع ، لا لأنه يعلم أن الأحجبة والبخور هى التى ستعيد إليه صحته وتشفيه ، ولا لأنه لايملك النقود الكافية .

- ففى استطاعته أن يبيع ماترييه زوجته من دجاج فى سوق الخميس .
ولكن لأنه ظن أن اجارة صابر قد اقتربت ، ويستطيع أن يعتمد عليه
فى أن يصطحب الطفل لأى طبيب بالبندر .

أنه فى خصومة مع البندر ، منذ أن زاره آخر مرة فى مولد
(أبى المعاطى) . ذهب إلى نفس المكان الذى كانت تقام فيه حلقة الذكر ،
حيث يلتقى بكل معارفه من أصحاب الطريقة ، وصادم عندما وجد بدلا
من السرادق الفسيح والبيارق المرفوعة ، والرجال الذين أخذتهم الجلالة ..
مسرحا للغوازى يرقصن فيه ويغنين . يومها أدرك أن البندر لم يعد فيه
خير . وأقسم ألا تدوس قدماه أرض البندر مرة أخرى . تذكر كل هذا
وهو فى طريقه للغيط . قال لنفسه أن صابر قد تأخر عن ميعاده ، وعليه
أن يحث فى اليمين ويذهب بالطفل إلى البندر كى يشفى . ثم أنه لن
يستغنى عن البندر ، برغم ما ارتكبه فى حقه من حماقات ، فكثيرا ما يزوره
لشراء « الصيغة » والكسوة وحلاوة المولد . عندما وصل إلى الغيط ، شمر
ساعديه ، رفع الفأس لأعلى ليطهر المصرف الصغير . قال : البركة
فى الطينة .

ه - اللوحة :

فى حديقة المدرسة تنثر الأطفال على الأعشاب الخضراء ، يرسمون
لوحاتهم وبينما كان مدرس الرسم يمر بينهم وفى يده عصاه الغليظة ،
همس عصام فى أذن طاهر محتجا : كل عام نرسم نفس الموضوع ؟ !
عض الأخير على شفتيه محذرا ، عندما سمع خطوات المدرس
تقترب .. قال مدرس الرسم لعصام : ماذا كنت تقول ؟

صمت عصام . . مد يده اليمنى مغمضا عينيه توقعا لضربه العصا .

ابتسم المدرس وشاب ابتسامته حزن حقيقى : لو قلت لى ماذا كنت تقول لزميلك فلن أمسك بسوء . أحمر وجه عصام : كل عام تطلب منا أن نرسم موضوع الحرب . . الحرب . . ولا حرب حقيقة تحدث . . ولقد سئمت ذلك . . أتشوق أن أرى حربا حقيقية . غير تلك التى أخططها بأوراقى . تذكر المدرس زميله محمود ، مدرس التاريخ الذى ذهب للجندية منذ شهور . ومر بخاطره تلك الأيام التى قضها بالجيش خلال شبابه . . كانت الذكريات تأتى بأدق تفاصيلها . . الحياة الخشنة فى الدشم التى يحفرون لها بين طيات الرمال . . تدريباتهم اليومية العنيفة . طاقم الدبابة رقم ٢٤٣١ التى كان أحد أفرادها . . العدوان الثلاثى على بورسعيد سنة ١٩٥٦ . الدفاع المجيد عن « أبو عجيلة » و « القسيمة » .

قال لعصام وقد اكتسبت كلماته شحنة من الحماس : هل تعرف تاريخ ميلادك ؟

- نعم ١٤ مايو سنة ١٩٦٥ .

- قبل العدوان الاسرائيلى بعامين .

- لكننى أعرف كل ما حدث . وانتظر مثل كل زملائى اليوم الذى يمضى فيه جيشنا كل ما أصابنا . أتكأ مدرس الرسم على العصا ، رفعها لأعلى . ثم راح يقرب مابين يديه ، حتى انكسرت . التقت نظرات الطفل بالمدرس كان وجهه غير منكفىء . . رأى فى عينيه مصر الآتية . . معفر الوجه والثياب ، لكنها متصرة . « الدبابة رقم ٢٤٣١ » تفتح التشكيل ، الجانب الأيمن ، هجوم مضاد على الموقع الثالث . « بلغنا عن حاضر » . رمى بالعصا بعيدا تجاه سور المنحل ذى السور الخشبي العتيق .

٦ - الخطاب :

ها هو الخطاب الذى انتظرتة كثيرا ، نفس الخط المنمنم الذى تعرفه والذى طال اشتياقها إلى صاحبه ، أسابيع ثلاثة مرت وهى تنتظر بلا جدوى . قالت لنفسها : لعله لا يجد الفرصة كى يكتب . أن وقته ليس ملكه . ثم يغالبها القلق ، فتأخذ فى قراءة خطاباتة القديمة . لاتدرى سر هذه الكلمات التى تحس بها تومض داخلها ، فتمنحها الدفء والإشراق .

دخل حياتها فجأة ، فقلب كل شىء فى طبيعتها ، جاءت للعمل فى الشركة كمحاسبة ، وأعجبها جو العمل وروح الزمالة ، هو مختلف بالطبع عن جو الكلية ، الا أنها تأقلمت معه بسرعة ، واستطاعت أن تكتسب ثقة الزملاء .

ورآته ذات صباح يصافح الجميع ، ويطلق نكاته فيضحك لها الزملاء من قلوبهم ، ويترك وراءه عاصفة من المرح والبهجة . دخل مكتبها شد على يد الزملاء ، نظر إليها ، قدم لها نفسه فى كلمات جادة تنفجر بالمرح : سعيد عبد المولى . مهندس زراعى . حاليا جندى بالقوات المسلحة غير متزوج بالرغم من هذه الدبلة التى يبدى . أنها تقف للحسد بالمرصاد . وراح يضحك وهو لازال ممسكا بيدها ، ارتبكت ، ولم تدر هل تسحب يدها : أدهشه صمتها ، اعتذر ، وأشعل سيجارة قال فى لهجة جادة وهو يتتقى كلماته :

آسف أن كانت قد ضايقتك طريقتى فى التعارف . قالت له : أبدا . أنا سعيدة بالتعرف عليك . لقد سمعت عنك الكثير ، رسمت لك فى ذهنى صورة مختلفة تماما ، عادت الضحكة إلى وجهه : لعلك ظنتنى شابا وسيما !

ضحكت لكلماته . كان منظره مريحا ، كانت له تلك السمرة التي لاتخطئها العين والتي تميز ملامح العسكريين . جلست تتحدث معه عن أخيها الجندي في السويس . وعن احتمالات الحرب . واستعداد القوات المصرية . حك ذقنه بيده وقال لها : ستسمعين خيرا . في الأجازة التالية كان قد خطبها واحتفلت الشركة بالمناسبة .

وبدأ يعلمها أبجدية جديدة . اكتشفت في شخصه رغم كل هذا المرح شيئا خفيا ، وجدته شابا يعشق أرضه ويؤمن بمستقبلها . كان حديثه معها عن المستقبل مشرقا ومضيئا . وعندما كان يمسك بيدها كانت تحس بأنه يريد أن يقطع المسافات ويلغى الأزمنة . . تغنى معه للقمر والضوء . للسنابل والمنجل . وما هو الخطاب الذي انتظرته كثيرا . تستنشق فيه عبير الأمل ، وترى فيه كل رموز الخصب والنماء . لكنها لاتدرى متى يتحقق لسعيد أمله في اجتياز المحنة ؟ طوت الخطاب وغابت في تفكير عميق .

٧ - هوية :

لم أكن أفكر في شيء سوى أن هذه اللحظات هي التي ظلت سنوات طويلة انتظرها كانت الأحاسيس مبهمة . النيران التي نصبها على العدو ، وتلك التي تنهمر علينا ، ودماء الرجال على خوذهم ، هي الشيء الواضح البسيط الذي تستطيع أن تصفه بحذافيره .

لم تعد هويتي ، هي تلك القطعة المعدنية المدون بها رقمى العسكرى ورتبتى كجندي ، واسمى وديانتى وفصيلة دمي .

اختلط كل شيء وماعدت أستطيع التمييز بين تلك الكلمات الرصينة التي كنت ألقياها على تلاميذى الصغار كمدرس تاريخ وبين صوت الانفجارات المتوالية انصهرت الأبجدية وأصبعى الزناد .

كنت أسمع قرقعات العجلات الحربية التى طرد بها أحسن المعتدين
الهكسوس وطلقات البوارج على « طوابى » أحمد عرابى بساحل
الاسكندرية ، وكرايج السخرة على ظهور الفلاحين . . وأرى انكسار
الانجليز فى كفر الدوار ومصرع كليبر الفرنسى فى حديقته ذات أمسية ،
والوميض الذى كنت تراه فى العيون عندما يهب الطلبة فى مظاهراتهم
الضخمة تطوف بالقاهرة وتمسح عن وجهها الأعياء ، فيسقط الضحايا من
فوق كوبرى عباس ، ودبابات الانجليز تهدم كفر « أبو عبده » ، فلا تنقطع
الانفجارات عن ثكناتهم . و « بلادى . . بلادى . . بلادى . » متصاعدة
من حنجرة هذا الشاب الذى يتفجر قلبه بحب مصر ، والحمام الأبيض
الذى سقطت منه أغصن الزيتون فى « دنشواى » ، والنساء المحجبات
يهتفن لسعد ويعرضن صدورهن للبنادق ، وكلمات من القلب كتبها جواد
حسنى على حائط سجنه ، وخيول نابليون تدوس المصلين بالأزهر ،
وعبد الله النديم يوزع منشوراته ويجوب النجوع متخفيا فى رداء الثورة ،
ولويس التاسع مكبل بالأغلال يساق لدار « ابن لقمان » . وكتاب الموتى
أرتل منه وأنا أشعر بشغل الأحجار فوق ظهور بناء السد العالى ، وبالأثرية
تملأ رثات من حفروا قناة السويس . عندما انطلقت أول رصاصة فى اتجاه
الشرق ، كنت الفرد الخامس فى الطاقم . فكرت فى طفولتى بين أزقة
المدينة ، ولا أعرف لماذا تذكرت ليالى رمضان وفوانيسه الملونة ، وأغانيه
الخضراء . ورحلاتنا قبل انطلاق مدفع الافطار إلى بحيرة المتزلة .

قلت لشهدى فجأة : هل تسمع عن حسن طوبار ؟

نظر إلى فى استغراب : لم أسمع عنه من قبل :

قلت : كان بطلا يغوص فى عمق البحر . ويثقب زوارق الأعداء .
ويجرحهم غرقى قال وصوت « الفيكروز » ينز : لابد أنه كان من بلدتنا .
انشغل عنى بتصويب المدفع ، أطلق فزاع قذيفته التالية . وأشار لنا
بأصبعه على الهدف المشتعل .
بينما كنت أحمل بيدي قذيفة جديدة . وانظر إلى العلم يرفرف فى
أعلى التبة .

فى البدء كانت طيبة

معفر الوجه بتراب طيبة .. أين رحلة الأحزان الشجية للشاطيء
الغربى الذى فى نهاية أفقه تغوص الشمس الإله .. ارتحل بحنين نازف
حاملا فى الشفاء تلك المعزوفات التى طالما ترنموا بها فوق النهر ، باليد
خوصا أخضر قربانا جديدا .

عريف أمين رمسيس .. جثت من الصهد والقيالة .. حيث النيل
محمر لا يزال حاملا معه خصوبته ، جاريا فى رحم الغيطان التى مافتت
تحلم بالأرهار ..

ابن العفرة والندب فى المآتم والسواد وأدوار الشاى الأسود الثقيل ..
قريتنا شريط ضيق من حقول القصب التى تسورها البيوت الرمادية
الكليلة الملامح ، وأشلاء معبد جرنيتى الأوصال ، صلب كوجوه الناس
فى بلدتنا ..

قريتنا .. يا خلق الله .. متعلقة بكل حجر ، بكل عمود مهشم فى
هذا المعبد .. جلساتهم لاتخلو إلا فوق وحول الصخور المتناثرة فى فوضى
محبية إلى نفوسهم .. يشمون فيها رائحة الماضى .. وأنا مثلهم أبصر فيه
ميلادا جديدا .

- أرسله يابن العم ليتعلم .. فبطون نساتنا ما أعطت إلا زراعا .
-والمال ؟ ..

- أرضك ! بع نصفها إن لزم الأمر ..

- يا خلق الله .. أنا عبد الستار رمسيس .. الصعيدي ابن الطينة
أفعلها .. كيف يكون جلوسى مع الرجال بعدها ؟

- إذن أتركه يعزق الأرض ويجمع القصب ويقضى ليله مع النساء
مثلنا .. أتركه ياعبد الستار ..

- أفكر ..

أهلى طيبون ، ولكنه يتنازعون إذا رن فأس فى حقل ، وعرفوا أن
صاحبه عثر على إناء من خزف أو تمثال من صخر ، واحتكره لنفسه ، ولم
يتركهم يصبرونه ، يتحسونه ، يقربونه من صدورهم ، يزيلون ما علق
عليه من تراب فى عشق لا يوصف .

أهلى طيبون .. ولكننى لا أعرف لماذا تنازعوا جسد مومياء عثروا
عليها عندما كانوا يجففون المستنقع الموجود بناحية الشرق ، وصمم كل
منهم أن يدفنها من جديد فى قبر عائلته ، واتسع الخلاف ، وحدثت
خصومات ، وفى نهاية الأمر اشتركوا جميعا فى بناء مدفن جديد يضعون
فيه كل ما يعثرون عليه من موميات ..

لا أنسى ذلك اليوم ، لبسوا السواد جميعا ، حتى أبى الكهل ،
أحضروا مقرئا يلبس قفطانا باهت الخطوط ، تلى من القرآن سورا
لا أذكرها .. وهزوا رؤوسهم فى حزن .. حتى النساء صبغن خدودهن
بالنيلة .. يأبها الموت القديم العظيم ، ناشدوك أن تترفق بهم فى
بردياتهم ..

(أيا من يعجل سير جناح الزمان يامن يسكن فى خفايا الحياة ..
يامن يحصى كل كلمة أنطق بها -

انظر أنك تستحى منى . وأنا ولدك .

وقلبك مفعم بالحزن والخجل .

ألا فسالمنى . ألا فسالمنى ..

وحطم الحواجز القائمة بينك وبينى !)

عريف أمين رمسيس .. أرسلونى إلى الجامعة بعد أن باع أبى نصف أرضه . وباعت أمى مصاغها وذهبت لأعود إليهم فى كل أجازة .. أحكى لهم ماتعلمته فى « مصر » من حكايات عن جدودنا .. هؤلاء الأحباب الذين تركوا بقرتنا أعمدة معبدهم . وبعض حليهم ، وخزفهم حتى أجسادهم الملتفة فى أشرطة الكتان المتبيسة ، ورحلوا .

فى ليلة كل أجازة كنت أرجع فيها من الكلية إلى قرينا . كانوا يتحلقون منقدا عليه ابريق الشاى النحاسى فى نفس المكان . يهزون رؤوسهم .. كبيرهم وصغيرهم . كان يفعل ينتظرون أن أقص عليهم كل شىء . أهلى الطيبون ، عمى خضير الذى أثناء حديثى يقوم من مجلسنا ويتحسس النقوش الغائرة فى العمود الوحيد الذى بقى قائما فى المعبد القديم .. هذا العم .. نسيت أن أقول أنه كليل البصر .. ولكنكم لو ترونه .. كالطفل الشقى الذى يضحك ويحزن ويقفز ويسكن عندما أحكى .

عريف أمين رمسيس .. عرفنى الجميع فى أمسياتهم بالأستاذ ، ورغم أنى كنت أحرص كل الحرص على أن أرتدى نفس الجلباب الذى كان لايفارق جسدى قبل ذهابى إلى الجامعة ، إلا أنهم أصرروا على أن ينادونى بهذا اللقب .

وعندما تخرجت وجندت وذهبت للقريّة بالكاكي . نظروا إلى طويلا
وصمت أهل قريتنا جميعا ، إلا عمى خضير فقد ضمّنى إلى صدره شد
على يدي : رجل يأمين ، من ضهر رجل . . يومها فرحت . . نظرت
لأبى من طرف عيني يضحك . . كلهم يضحكون . . ولم يعفونى من
الجلسة المعتادة . لكنهم أصبحوا يسألوننى أيضا عن الجندية . . عن
الكاكى . عن مصر .

عريف أمين رمسيس . . يا أهل قريتى البعيدة . .

عبرت وحاربت . . ويكيت كالجميع . أنا الصعيدى الذى قضيت
نصف عمرى لم أضع فى قدمى حذاء . أسرت الكثير منهم . ولكنكم
لستم غرباء ، ستسمعون قصتى مع أهل قريتى . . قصة طيبة المعادة . هذه
أول اجازة لى بعد أن عبرنا القناة ، كنت مرتديا الكاكي . نظروا إلى فى
فرحة . حملونى على الأعناق ، جروا بى إلى المعبد قبل أن أذهب
لدارى . يومها لم يسألونى أن أقص عليهم حكاياتى لكنهم تحسّسوا
ملابسى . جسدى . نظروا فى عيني ، حتى أطفالهم شدوا أطراف
سترتى . ضحكوا يومها كثيرا . .

وفى المساء كنت أجلس معهم ، فى مكاننا الذى لم يتغير . . بجلبابى
الأبيض . وشعرى الحليق وكان أبى هو الذى يوزع أدوار الشاى فى
فرحة ، وكان عمى خضير يربت على كتفى من وقت لآخر وكانت
تتنازعنى رغبات غير محدودة فى أن أرقص . أقوم وسط أهلى وأرقص . .
أنا الذى لم أفعلها من قبل .

- أحك . . أحك لنا .

- لا تنس شيئا .

أنسى ! أنا أنسى ؟ سأقص يا أهلى .. من البرديات أقرأ .. ومن
النقوش فى أعمدة وجدران المعابد استعيد الحكاية .. (لا أعرف لماذا قد
نزلت بنا صاعقة فى عهد « تحتمس » من غضب الإله ، فقد تجرأ قوم من
أصل وضيع من الشرق على غزو بلادنا . وقد كان مجيئهم أمرا مفاجئا
وقد تسلطوا على البلاد بمجرد القوة فى غير ما صعوبة . وبدون نشوب
موقعة حربية) .

لماذا كل هذا الحزن يا عمى خضير .. لماذا كففت عن توزيع أدوار
الشأى يا أبى .. مارلت فى أول الحكاية .. البردية لم تنته بعد .. لا ..
لا أريد شأيا .. لقد نسيت فى موقعى الجديد .. (أحرقوا المدن بوحشية ،
وأزالوا معابد الآلهة من أساسها . وساروا فى معاملة الأهلى بكل قوة .
فقتلوا بعض القوم وسبوا نساء وأطفال أناس آخرين) .

يا ذلك النذب الأبدى الحزين . يا طيبة كيف صبرت على كل هذا
الهوان ؟؟ وما كف آمون عن العطاء .. يا طيبة ، غسلنا بدموعنا
خطايانا .. رفض الآلهة القرابين . وأمرونا بأن نسترجع ما سلبوه من زهور
البردى .. ما حطموه من معابد .. تأملوا جميعا كل كلمة فى حكايتى ..
تأمل يا عمى خضير .. تأمل ..

(تأمل إنها الدلتا فى أيدى من لا يعرفها مثل أولئك الذين
يعرفونها وأن الاسيويين مهرة فى مهن أرض المستنقعات) .. فى أيدى من
لا يعرفونها يا أبى . وفى القلب جرح نازف .. وما سكتنا .

(ولكن الجائحة الشنعاء فى بلد (العامو) وكان الأمير « أبوفيس »
فى « أواريس » وكانت كل البلاد خاضعة له . وكذلك كل حاصلاتها
بأكملها . وكذلك كل طبيبات « ثميرا ») نعم .. أحكى لكم ..

لا تسألونى كيف عبرت مع الرجال .. ولا كيف سمعت نداء طيبة ..
وآمون .. والرحلة الحنون إلى الغرب ..

ونظرات أُمى بعينيهما المكحلتين بالترقب .. لا تسألونى كيف عبرت ،
ولكن أسألونى كيف كان اللقاء .. تأملوا ..

(تأملوا فأنى سأحارب (العامو) وأن النصر سيأتى وإذا بالبكاء ..
فإن الأرض قاطبة سترحب بى بوصفى محارباً لأهزم « العامو » بأمر « آمون »
صادق النصيحة . وقد كان جيش شجاع يسير أمامى كأنه عاصفة من نار) .

فجأة ياعمى حدث ما حلمنا به طويلاً . أعطونا القوارب . هذه
أرضكم السلبية .. استعيدوها .. يا من انتظرتكم كل هذه السنوات وبالألم
مضت أيامكم ..

كنت أحملكم فى أوصالى . ومعبدى بردياتى . طيبة ، الطيبة ،
القوية السمراء ، النيلية ، الخصبة ، التفتق ، الزاخر .. لا تسألونى ..
ولا تدمع عيونكم .. مازالت هناك سطور (ثم جعلت « العامو » ..
الذين اعتدوا على مصر يولون الأدبار) حدث هذا يا أهل قرىتى ..
وكانت فرحة .. (ومضت الليلة فى سفيتتى وقلبى فرح وعندما أضواء النهار
انقضضت عليه كالصقر . وعندما جاء وقت تعطر الفم كنت قد هزمته) .

بحق النبتة المعطاة فى الوادى وأسوار المعبد المقدسة أقسموا .. وأقسم
برغيف الخبز يشبع الأطفال .. أنا الصعيدي الأسمر . لم أشعر بحبى
لطيبة مثلما شعرت ونحن نخلصها (وكان جيشى كالأسود عندما ينقضون
على الفريسة ومعهم العبيد والقطعان والآدم والشهد . فقسموا غنائمهم
وقلوبهم فرحة) .

عريف أمين رمسيس .. أسرت من الأعداء أربعة بمعونة زميلى فى
الكتيبة .. لا ياعمى خضير ما كانوا يرتجفون برداً لكن ذعرا . يا أبى الطيب

ابنك حارب .. كأحمس بن أبانا الذى لم يكن ملكا .. ولكن فلاحا من
طيبة .. يحب اللوتس والبردى .. يستهويه اللون الأخضر .. لم يعتل
عرشا .. ولم يمسك صوبلجانا ولكنه تشرب حب الأرض والحياة .

يا أبى الطيب .. أحمس ابن أبانا هذا ، ماصنعوا لجثته هرما
ولاجرجروا من أجله الأحجار مئآت الفراسخ . بل ابن فلاح أتلقت
الديدان نصف قمحه .. وأكلت أفراس البحر ما بقى منه . ووهب ابنه
جنديا شجاعا لمصر .. هذا هو الابن ..

(وعندما بدءوا الحرب على الماء فى القناة « بزدكواواريس » أسرت
أسيرا وأحضرت يدا . وقد أعلن ذلك لحاجب فرعون . ومن أجل هذا
أعطيت ذهب الشجاعة) .

نحن يا أبى الذين حاربنا ..

كل حفنة رمل استرجعناها كنا نحتضنها .. نستشق النسمات التى لم
تكن تدخل رئاتنا إلا محروقة .. أسرنا الكثير يا أبى ، كنا نعهد بهم فى
أحيان كثيرة لبعض جنود الصاعقة ، على أن يحملوهم إلى الشاطئ
الآخر ، كانت هواية محببة للكثير .. هواية قديمة .. البردية تحكى ..

(وعندما حاربوا فى مصر فى الجزء الجنوبى من هذا البلد ، أحضرت
أسيرا حيا ، وقد ذهبت إلى الماء لأنه كان قد أسر فى الجهة الأخرى ، وقد
أعلن حاجب الملك بذلك ، وتأمل لقد كوفئت بذهب الشجاعة من جديد) .

عريف أمين رمسيس .. أبى كهل باع نصف أرضه لتعليمى .. عمى
خضير يحتضنى كلما رآنى مرتديا الكاكي .. بقسريتنا معبد فرعونى من
نقوشه ارتل .. مع أهلى أجلس فى المساء .. لنسترجع قصة طيبة ..
نسترجعها من جديد .

سقط في الثانية صباحا

من غرفة عمليات الكتيبة ١٨ إلى قيادة اللواء ١٦ مشاة :

كان هذا الموقع بالذات من أخطر مواقع العدو ، ظل يصب نيرانه على قواتنا المخندقة في باطن التبة مع آخر ضوء حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي دفعنا إليه بمجموعة مكونة من أربعة أفراد ، تمكنوا من إسكات الموقع ، وتدمير بطارية الميدان من عيار ١٥٥ مم ، وقتل أفراد الطاقم ، بينما استشهد أحد جنودنا ، وأصيب آخر باصابات طفيفة ، تم هذا في الثانية صباحا . انتهى . .

الولادة:

هل مات ولدى عبد الموجود ؟ لا تتركوني حتى أحكى لكم . . الدار التي تجلسون في صحنها داره ، والمساند التي تستند عليها ظهوركم اشتراها لنا منذ عام . كان بشوشا ضاحك الوجه . . الولد الوحيد في خلفتي الذي ضحك بعد ولادته بساعات . . عندما أمسكته وكان كقطعة لحم حمراء ، حدثت في ملامحه ، مغمض العينين ، يرفس برجليه الهواء ، أخذته من بين يدي الخالة مباركة الداية ، قطعت خلاصه وغسلته بالماء الفاتر ، ولفته في مخاطه القطنى الأبيض ، ثم أعطتني إياه . غفوت ، وعندما صحت كان في أحضانى يضحك . . أقسم لكم كان يضحك بلا صوت . فمه يرتعش بعض الشيء . بكى بعدها كثيرا إلا أنه ضحك كما لم يفعل أى طفل من أطفالى . . وأسألوا أم هند فقد حضرت ميلاده وهى التي قدمت لى كوب المغات المحوج ، وقالت لى أن وجهه فيه نور ، وأن هذا من بشائر السعد . . كانت النخلة التي يستند سعفها على السقف ليست بهذا الطول ، ولم

يكن الخلق بمثل هذه الكثرة ، حتى « الراديو » ما كان يوجد إلا فى دار العمدة ، وكان زوجى ساعتها يجلس هناك يسمعه ، فقد ظن أننى لن ألد .. الليلة لم أتلو من الألم كما تفعل الجارات ، ولم أصرخ فتشق صرختى الليل كما فعلت خديجة قبلى بأيام .. أتت ولادتى دون أن أحس كنت خائفة قبلها .. ولكن تم كل شيء فى دقائق .. وعندما جاء زوجى مهرولا ، والعرق يتصبب من وجه .. أخذت يده بين يدي ، قبلنى للمرة الأولى أمام الغرباء . ثم رفع الطفل بين ذراعيه قرب من المصباح . تأمل الوجه الطاهر ، وضحك .. ضحك .. وأخذ يهدده ، لف الحجرة كلها وظل جالسا بجوارى حتى الصباح ونسى أن يغلق نافذة الحجرة المجاورة .. فكنت أسمع تقيق الضفادع تنهادرى إلى سمعى تباركنى ! ؟ فهل حقاً مات عبد الموجود ؟

الحجرة :

قابلنى أول ما قابلنى وأنا أُملا الحجرة من ماء التربة : لم أكن وحدى بالطبع .. كنت وسط مجموعة البنات ، أضع الحجرة فوق رأسى مائلة بعض الشيء ، ثم أغنى معهم « .. يا حمام العمدة .. يا حمام الغفير .. » تربص لى بين أعواد البوص النحيلة القريبة من منزلى قال أنه سمع صوتى ، وأنه أجمل صوت سمعه فى حياته ، طلب منى أن أغنى له وحده .. خفت أن يرانا أحد ، جريت نحو دارى .. من خجلى تعشرت .. وسقطت الحجرة على الأرض فانكسرت .. بكيت ونظرت ناحيته ، رأيته يضحك ، تحولت دموعى إلى بسمة أخذت تتسع . فى اليوم التالى كنت أغنى له وحده .. وكان قد اشترى لى زجاجة عطر من البندر ، ومنديلا مطرزا رآته صحيانى فتخاطفنه وعندما جمعنا دار ، وزغرطت أمه ظل يذكرنى بهذه الحكاية كلما تخاطفنا .. فكنت أصالحه ونضحك .. فهل مات حقاً عبد الموجود ؟؟

السيجارة :

أنا زميله فى الجندي يوما بيوم ، حشرونا فى القطار الذاهب إلى
أسيوط مع الرقيب خليفة الذى كان يعدنا بعد كل محطة يهددنا حيناً ويغرينا
حيناً كنا سعداء لأننا أصبحنا رجالاً ، يخلق شعر رؤوسنا وترتدى الملابس
العسكرية ، ونسير فى طرقات القرية بارزى الصدور ، بينما الصبية ينظرون .

إلينا فى حسد والبنات فى إعجاب . كان فرحاً .. سألته السبب
فأخبرنى أن له زوجة وطفل ، قدمت له إحدى سجائرى .. أخذها ..
وضعتها فى فمه دون أن يشعلها قال لى والقطار يعدو بين الحقول كالمجنون
، أنه ترك أرضاً ينبغى أن تحرث . وزرعاً لا بد أن يروى وعندما خففت عنه
أحزانه ، أعاد لى سيجارته دون أن يشعلها .

جاءت قرعتى معه .. نفس الكتيبة .. فى إحدى المرات وصلته
رسالة من زوجته ، مزق الغلاف وبدأ يقرأ ، رأيت يضحك بصوت عال ،
سألته السبب ، هاجمه الحزن فجأة : اتعلم .. طفل جديد !

ضممته إلى صدرى وأعطيته السيجارة التى طلبها . فهل حقاً مات
عبد الموجود ؟!

العصا :

لم أضربه مرة واحدة .. كنت أشعر أنه أكبر من العقاب ، فى المرة
الوحيدة التى رفعت فيها العصا لأهوى بها على يده ، نظر إلى بعتاب ،
فقدفت بالعصا من النافذة ، ولم أعد أحملها داخل فصله .. نبيها كان
ينتظر حصّة التربية الدينية ليرتل سور القرآن التى حفظها على يد الشيخ
سلامة بصوته المنغوم العذب ، فيهتز ظهره بينما يضع كفيه خلف أذنيه .
وعندما مات والده ، بكى لأنهم أخرجوه من المدرسة . ذهبت لأمه فى

الدار قلت لها أن عبد الموجود سيكون مستقبله عظيما ، هزت رأسها في حيرة : ومن يزرع الأرض ؟

أصلحت من عمامتى ومضيت : خسارة يا عبد الموجود .. كنت تجمع الأرقام وتطرحها في رأسك الصغير وتراهن فلا تخسر .. فلماذا أخذتك الأرض من المدرسة ولماذا لم يتركوك تكمل تعليمك ؟

ذهبت للعمدة .. طلبت منه أن يتدخل ، قال بامتعاض : وهل ستطعمهم كتبك ودفاترك ؟!

بعدها بسنوات ، قابلنى عبد الموجود ، شابا يافعا ، التماعة الذكاء فى عينيه ، خطف يدي وقبلها . استغفرت الله . قال لى أنه أحبنى فى اليوم الذى قذفت فيه العصا من النافذة .

فهل مات عبد الموجود ؟

مكنة الرى :

أخطأ عبد الموجود فى حقى أمام أهل القرية ..

كنا جلوسا فى المقهى نلعب « الدومينو » ونرتشف الشاي ، عندما جاء واستند على الباب الخشبي الثقيل .. طلب منى أن أترك له مكنة الرى ذلك الأسبوع .. أخبرته أنه دورى إلا أنه أقسم أن الدور دوره وأن الزرع سيجف ، ويتلف المحصول بسببى .. ولما أقسمت أنا الآخر أننى لن أتخلى عن حقى الواضح وضوح الشمس ، أرغى وأزبد ، ضرب المتصدة التى أجلس عليها بقبضته ، فتطايرت قطع « الدومينو » ورأيت الشر فى عينيه . قلت له أننى لن أتنازل ، فجذبنى من ياقة جلبابى ، وأخذ يهزنى متوعدا تدخل أولاد الحلال وقالوا أن الأمر لا يستحق الشجار ، وأن الصلح خير .

أرسل العمدة لنا بعد علمه بالخبر ، ذهبت جاسر الرأس ، وانتظرت مع العمدة طويلا فلم يحضر !

أقسم العمدة أنه سيكسر رأسه . . لأنه لم يخلق بعد الشخص الذى يعصى أوامره . . وعندما رجعت لدارى وجدته يستند على جذع الشجرة القريب . . تخوفت وكدت أصرخ ، إلا أنه أحاطنى بذراعيه اعتذر لى ، قال أن الغضب أطاح بعقله . . وفى الليلة التى بعدها ، قدم لى كوبا من الشاى فى المقهى أمام أهل القرية ، وقبل رأسى ! .

اللوحة :

أنا ملازم أول مصطفى عبد السميع . دخلت ملجأ فى الظهيرة للتفتيش ، استرعى انتباهى تلك اللوحة التى علقها فوق سريره المصنوع من الصاج المتعرج . كانت تمثل طفلا نحىلا فى جلبابه الممزق تقف على رأسه حمامة السلام وفى منقارها غصن زيتون أخضر .

سأله فى فضول : لماذا تعلق هذه اللوحة يا عبد الموجود ؟

-أعجبتنى !

- ما الذى أعجبك فيها ؟

- السعادة التى تغمر هذا الطفل عندما يشعر بألفه طائر .

- ما الذى علمك هذا ؟ . أنها لوحة شهيرة لفنان عالمى .

- أعلم . وصاحبها بيكاسو ؟ . .

- الذى أعلمه أنك لم تحصل على مؤهل .

- لكننى - سيدى الملازم - قرأت وتعلمت الكثير .

جلست أجاذبه أطراف الحديث . بهرني بكلماته التي كانت تنساب في بساطة لكن بوعى وفهم . كنت أظنه بعلامحه الخشنة ، ولهجته الصعيدية وبزيه العسكري الفضفاض الذي لم يكن يعتنى به قط فلاح من أهل الجنوب الذين حرمتهم الظروف من التعلم ، خاصة بعد الاطلاع على نموذج العسكري الذي أفاد بأنه لا يحمل شهادات .

لكن اللوحة التي رأيته ، وكلماته التي أذهلتني ، جعلت من ملجأ المكان الذي ألوذ به من الملل والوحدة ، كلما دهمنا الليل بظلامه وعلى ضوء مصباح كيروسيني معلق في سقف الملجأ كنت أستمع إلى مواويله الحزينة التي لم أكن أفهم معناها إلا عندما يفسرها لي .

وصادقته ، بل عجبت بشخصيته التي دعمتها رجولته في المشاريع القتالية . فكنت اعتبره صديقا لي وليس جنديا يأتمر بأمرى . .

فهل حقاً مات عبد الموجود ؟

الثانية صباحا :

اليوم الثالث للحرب ، كانت قواتنا قد قامت بحركة التفاف مفاجئة حول اللواء الاسرائيلي المدرع الذي حاول أن يصنع رأس جسر في القطاع الأوسط لمجحنا في تدمير عدد كبير من مدرعاته ، أخذنا في مطاردة الدبابات التي حاولت الفرار ، كانت أشبه بخنافس سوداء ، مذعورة تتحرك بلا هدف . . كانت تعاوننا مدفعية « الهاوتزر » . . أثناء تقدمنا أخذت القلائف تنهال علينا . . أمرنا القائد أن نتخندق في باطن التبة ، بدأنا نصب نيراننا على مواقع العدو . . سكنت إلا موقعا راح يطرنا بقلائفه بلا توقف . اقترح القائد أن تقوم مجموعة منا بمهاجمة الموقع رحفا . إختار الملازم مصطفى أربعة أفراد : عبد الموجود وميخائيل وسالم وأنا .

تقدمنا فى حذر علقنا قنابلنا اليدوية فى « القايش » من الخلف .. أخذنا نزحف فى ببطء ، تفصل بين كل جندي وزميله مسافة واسعة .. اقتربنا أكثر لمحت حزمة النيران تنطلق من فوهة المدفع ، انبطحنا ثانية .. أشار عبد الموجود لنا .. فى لحظة كانت قنابلنا اليدوية تحيل الظلام إلى ضياء ، أصوات الانفجار ، وشاهدنا قطع الحديد تتناثر وسط الدخان الكثيف .. تقدمنا ، فى هذه اللحظة أطلق أحدهم دفعات متلاحقة من رشاشة « العوزى » أصابت صدر عبد الموجود .. حاولنا إنقاذه ، لكن الإصابة كانت خطيرة قذفنا بقنبلة أخرى تجاه الجندي الاسرائيلي أطاحت بالجسد الضخم .. تفقدنا الموقع كانت عشر جثث وبقايا مدفع محطم ، وخنادق الذخيرة المتناثرة ، ومعلبات عديدة ، وعلم باهت .. اتصلنا بالقيادة ، أمرت بإخلاء الجرحى .. أصبت فى كتفى إصابة سطحية . حملت عبد الموجود على كتفى . حمل ميخائيل أسلحتنا .. بكى سالم عندما جس نبض الجريح .. وعندما وصلنا إلى بطن التبة ، تساءل الجميع :

هل حقاً مات عبد الموجود؟؟

حبة الجوافة

حين انضم إلى وحدتنا العسكرية ، ولاحظنا قصره الملفت للنظر كنا نتعمد دائما أن تكون نوبة « الكينجى » القاسية من نصيبه . وحين تتهاذى سيارة التعيين على المدق الجيرى ، كان يسرع بالأوانى المعدنية الخالية ليعود بها ممتلئة ، تفوح منها رائحة الطبخ ، ورغم ذلك كان يحصل على أقل قدر دون أن ينبس بكلمة واحدة . وفى آخر مرة ونحن فى مناورة الخريف جاءت السرية سلة بها ثمار الجوافة ، حاول الرقيب مصطفى أن يوزعها بالتساوى فيما بيننا فاكشف أن واحدا منا لن يحصل على نصيبه . تشرح صوته وهو يسأل : من الذى يتنازل عن نصيبه هذه المرة ، وفى المرة القادمة أعده بثمرتين ؟ الجميع صمت وحاصرتة العيون ، فهز برأسه راضيا ، والتهم الجنود الثمرات دون أن يفكر أحدهم فى هذا التعس الذى جنى عليه قصره . وحين أرسلوه ليأتى بتعيين الأسبوع من السجائر عاد بالكمية مضاعفة . ففهمنا أن درجة الاستعداد على وشك أن ترفع .

نقصت علبتان ، وحين إتجهت الانظار نحوه كى يتنازل كعادته انقض على نصيبه ، واندفع إلى الملجأ وهو يزوم كمر هائج .

والآن ، حين يشتد قصف مدفعية الهاوتزر ، ويشعر قائد السرية بحرج موقفنا ، يسأل بنظرة كلها لهفة: من يصلح أسلاك الموقع ؟

يزحف كالخنفسة السوداء ، فى إصرار يتحرك ويبحث عن الأسلاك المقطوعة ليوصلها ، وهو يتسم نفس الابتسامة الساخرة التى لا تعنى شيئا .

بعد تطوير الهجوم ووقوع حرب الدبابات التصادية حوصرت النقطة ، وطلب من قائد السرية رفع العلم الأبيض ، كان الاستسلام يعنى نهايتنا ، وكانت قطرات المياه قد نفذت تماما . أما معلبات الفول وقطع الجبن المحفوظة فلا تكاد مع الخبز القليل اليابس تسد الرمق .

ننتقل من موقع إلى موقع والنقطة محاصرة ، و القصف يشتد كلما أوغل اكتوبر فى معانقة ساعاته وهو من خلفنا يجر « المخله » وهى ثقيلة . أقول له : عنك . فيرفع يده رافضا مساعدتى .

لقد أوشكنا على الهلاك ، ولم نتمكن بعد من فك الحصار الصارم .

رفع صوته النحيل ونادى علينا جميعا ، صرخ القائد فيه وهو يرانا نتجه ناحيته : ماذا جرى لك ؟ لم تريداهم ؟ لم يرد . فقط رأينا جميعا يفك حبلًا غليظا كان يربط به عنق « المخله » ويسكب كل ما فيها وكان حاويا يلعب بمهارته وخفة يده اللعبة المشيرة ، تناثرت معلبات لا حصر لها ، أرغفة يابسة ، قطع البسكويت فى غلافها الشفاف ، معلبات أسماك محفوظة ، زمزميات مياه ممتلئة ، بعض حبات الاسبرين . مخزن تعيين كامل كان يخفيه هذا الماكر ، ونحن الذين كنا نعتقد أننا نضحك عليه ، كيف بالله خدعنا ؟

نظرنا نحوه ويده تمتد إلى هدف محدد ، تناول حبة الجوافه ، ضحك وهو يقضمها : اظن أن هذه حقى . وضحكنا جميعا ونحن نعانق هذا القصير الماكر الذى مد يوما فى عمرنا ، قبل أن تفلح قوات المشاة فى كسر الحصار وانقاذنا من هلاك محقق !

جندى الإشارة

حين أوشك الليل أن يتردى قتيلا تحت أقدام طلائع النهار تحصنوا فى
حفرةهم . وقبعوا خلف السواتر ينظفون أسلحتهم بـ « الحربى » . سمح
لهم القائد بإشعال سجائرهم بعد أن كان الحذر مفروضا على الجميع حتى
أن عقلهم كاد يطيش .

وضعوا بعض العبوات فى حفرة صغيرة وأشعلوها ووضعوا فوقها
إبريق الشاى النحاسى الذى سرعان ما اهتز تحت وطأة غليان الماء . صبوا
بالقسط أنصبتهم فى أغطية الزمزميات . وعلى حين غرة انطلقت المدافع
المعادية تصب جحيمها على الموقع . لم تمتد يد لتضع الكوب . بل ظلوا
يدخنون بشراهة ويرتشفون الشاى فى تلذذ . كان القائد يشعر بأن تلك
اللحظة الفاصلة هى التى تعيد شحن مقاتليه بروح إنسانية جديدة . لذلك
لم يعترض حين خلع جندى الإشارة سترته وقد عصفت به لحظة صفاء
إنسانى نادرة . إذ راح يرقص فى الساحة المكشوفة وهم يهمهمون معه
ويغنون : « على بلد المحبوب ودينى » تصفيقات كلها متعة ، وأشجار
قزمية صغيرة تنصت للغناء .

حين انتهت سجائرهم ، وألقوا بالبقايا المشتعلة فى الرمل الأصفر
البارد ، قبضوا من جديد على بنادقهم الآلية .

بينما كان جندى الإشارة قد سكت تماما بعد أن احترقت شظية كتفه ،
وتوغلت شظية أخرى جهة القلب . قلبوه وصنعوا حفرة عميقة ودفنوه
وأمطروا المواقع المعادية بقذائف الهاون .

أما القائد فقد أمر جنوده أن يواصلوا الغناء ، ودعم طلائعه المهاجمة بأفراد القناصة . لم يكد القتال المتلاحم ينشب حتى سقط للأعداء جنود كثيرون .

وسط الدخان وهشيم صناديق الذخيرة ، وبقايا علب التعيين كان مكانه معروفا .

وكان القتال كر وفر ، وإقبال وإدبار ، وقتلى وجرحى . وحصار ودمار .

وفى كل مرة ينقص عدد المحاربين أما من بقى فقد كان يذهب إلى نفس الحفرة ، ليسقى بغطاء زمزميته نبتة خضراء ، أورقت رغم العفار وأنفاس الموت .

وفى نفس المكان الذى ضم هيكل جندى الإشارة كان الهواء كل ليلة يهب هباته المألوفة ، فيسمع جنود الخدمة الليلية تلك الأغنية « على بلد المحبوب ودينى » !

نوبسات الراحنة

هذا الذى كان من المقاتل . إذ أنه أدرك أنه محاصر من الجهات الأصلية الأربع . فأحاط جسده بحزام الديناميت وقبع فى خندقه البرميلى انتظارا لدبابة « الباتون » وحين سمع هدير جتزيرها تهباً لملاقاة الموت . وكان يتصوره بلون الرماد وبامتداد الأفق ، يغوص فى متهته ، ويتخلى عن كل تلك التفاصيل المرهقة . لكن الذى حدث ولم يكن على استعداد لتوقعه أن الدبابة عندما أصبحت على مقربة امتار قلائل عطبت . وكان الليل يزحف بضراوة . ويوشك أن يستلغ آخر خيوط الضوء الواهنة . فى ذلك التوقيت الحرج حلقت طائرة عمودية وألقت بقنابلها فأصابت الدبابة بطريق الخطأ .

صار موقفه أكثر حرجاً . وأدرك أن عليه أن يعيد حساباته . فك الحزام العريض وتحسس خصمه المرهق ولمس بأصابعه الجلد المحمر المشدود فى تسلخات صارت تؤلمه .

أطاح انفجار الذخيرة ببرج الدبابة ، وكان جنود الأعداء يقفزون هرباً من الجحيم المشتعل . يكاد ريقه أن يجف . فقد آخر قطرة من « زمزميته » منذ أمس . وحف مستترا فى غطاء الليل . كانوا كلهم جرحى يئنون . لمح جثة أحدهم ممدودة ويجوارها شجرة صبار تكاد تذوب فى العتمة . وحف أكثر . وتزايد الأنين . انتزع السونكى من « الجفير » وحرك نصله أمام عينيه ، وركض نحو جسد الدبابة العملاق .

كانوا يرطنون بالعبرية ، وهو لا يفهم منها حرفا . ابن خاله صبرى
تخرج العام الماضى فى كلية « الالسن » وكان يمر عليهم أمام حانوت
البقالة ، ليمزح معهم ويقول وهو يغيظهم « شالوم » فيرمونه بقطع
الحجارة ، وهو يقفز ويطير من أمامهم مصطنعا الخوف . أين نراه الآن وقد
رآه حليق شعر الرأس منذ شهرين بعد انخراطه فى الجندية ؟

كان أحدهم يمد يده نحو فمه . تقدم بحذر من جسم الدبابة ، كان
الدخان مازال يتصاعد ، ورائحة الدم مختلطة بالبارود تملأ المكان . وهدير
مدافع متباعدة لا يكف . وعمر من الشار يمتد منذ تاريخ بعيد لا ينتهى .
غاص فى جوفها الملهب وعاد ببقايا « جركن » ماء ، صب فى زمزميته
الخالية الماء حتى انسكب ، لم يكن يرى الأشياء بوضوح . هداه الانين إلى
أماكن الجرحى راح يصب فى أفواههم المفتوحة بعض الماء . تمددوا فى
نفس أماكنهم ، حاولوا أن يتساندوا عليه ، كانوا يتحدثون وهو صامت .
هل ظنوه واحدا منهم ؟ لا يعرف . كل مافى الأمر أنه تأكد أنهم شربوا
جميعا من زمزميته . وارتبوا فى هذا المكان القفر ، وحين ارتفعت يده
بالزمزية ليشرب ، وكادت الحافة المستديرة تلمس شفثيه . شعر بنصل حاد
يشق كتفه . كان انينه مذبوحا وقاسيا . رحفوا تجاه الشرق وهم يحاولون
فى صعوبة أن يخففوا من جروحهم ، وحروقهم وحين رفع يده مشيرا لهم
نحو فمه كى يطفئوا ظمأه . عاجله خصمه الذى شرب من يده الماء منذ
لحظات بطعنة أشد إيلا ما . ومضوا تاركين إياه يتخبط فى دمه . وعلى
مقربة منه حزام الديناميت . وسونكى يلتصع تحت ضوء القمر ، وكتاب
صغير للمتنبى ، كان يحب أن يقرأه فى نوبات الراحة !

المجذوب

مشهد يتكرر :

فى الزحمة كان يقف ، شاهرا سيفه الخشبى فى الوجوه المندهشة ،
خلفه تجرى جماعات الأطفال بأقدامهم الحافية ، وشعورهم المنكوشة ،
يدفعونه بأيديهم الصغيرة المتربة ، وقميصه الممزق يمتص دماء الدم المنسرب
من إبهامه . دمعت عيناه ، بكى ، ولم يتركوه . كانوا يرددون صيحتهم
المنغومة : « يا حداية يا أم دواية .. جوزك مات فى دمياط .. صوتوا لها
يا بنات .. بالعصاية والكرباج » . استند إلى عمود الإنارة وسط الميدان .
كانت الشمس محتجبة خلف السحب الشهباء التى تمر فى ثاقل وبطء
شديدين . رفع يده يحمى وجهه من قطع الزلط والحجارة ، زفر بحرقه
ومالبت أن ركل حجارة الطوار البازلتية فى رفق . جرى يسار شارع
الناصرية منفلتا من حصارهم المضروب حوله . لا حقته ضحكاتهم
الساخرة . وقف رجل أمام ورشته ، صرخ فى الأولاد : انصرفوا إلى
بيوتكم .. دعوه فى حاله . تقدم من « مسعد » المجذوب ، قدم له كوز
الصفيح ممتلئاً حتى حافته . كنت أرقب ذلك المشهد اليومى ساعة العصر ،
ولم أخلع ثياب المدرسة بعد .. أراه جالسا يلتقط أنفاسه ، والأطفال
ينصرفون لبيوتهم بخطواتهم الصغيرة وتأتى أمى ، تهزنى من كتفى :
هيا . الطعام .

أحدثها وقلبي به غصة : يا لحنى على الرجل . لقد أشبعوه طوبيا !

تجذبني أمى من أفكارى : مسعد .. إن حكايته حكاية .

الذهاب :

قالت أمى ، بعد أن فرغنا من طعامنا الذى تأخر بعد أن فرغت من الغسيل :

لقد كان زينة شباب هذا الحى ، بعوده الفارع ، ووجهه الخمرى ، وشاربه الكث الغزير . لم يكد يمضى على تخرجه من كلية الهندسة سوى شهرين حتى طلبوه للتجنيد . الحاجة سعدية وضعت خدها على يدها وبكت بكريها ، راحت بين المكاتب تهول محاولة أن يكون توزيعه على وحدة عسكرية قريبة . قالت لكل من قابلته أن أباه يقضى معظم الوقت فى أسوان ، وأنه الابن الأكبر ، بعده أنجبت بتين ، وانقطعت أعواما طوالا ، ثم أنت بطفلها الصغير الذى لم يتجاوز عامه الرابع . وأن البيت يحتاج لحس رجل . أفهموها أن ذلك ليس بأيديهم . واسوها وقالوا لها فى رقة أن الأيام تفوت بسرعة ، وأن الجيش يخلق رجالا .

كانت موقنة أنه يضيع من بين يديها كالسراب ، صرخت حين عادت فى صورة زوجها داخل إطارها الخشبى : أنت أردت الانجاب ، وقد حذرتك فى تلك اللحظة دخل مسعد ، رمقها فى حنان وقبلها على جبينها ، وسألها : لماذا تخافين ؟ لست أول الشبان ولن أكون آخرهم . ثم أن هذه ضريبة الوطن . ولو فعلت كل أم مثلما تفعلين لأصبحت الجبهة بلا جنود !

لم تجرؤ الأم على النظر إليه ، تشعر أن الزمن يتربص بها ، قالت : سوف أذهب معك للفر . لن أتركك .

رفع يله معترضا : لست صغيرا . وجودك معى لامعنى له . وسيعقد الأمور .

استكانت للأمر الواقع ، عرفت أن مسعدا قد كبر وصار رجلا ، وأن
المدة التى سيقضيها لا تستدعى كل هذا القلق .

قالت له : سأتركك تذهب ، لكن عليك أن ترسل لى خطابا كل يوم .
ضحك وتجمعت حوله خيرية وثرىا وصديقتهما سوسن . قالوا له
بصوت واحد : تمام يا حضرة الأومباشى .

سوسن سألته : أكتب كل يوم خطابا ؟ هز رأسه بالايجاب .

استشعر خلف الكلمات بعض المعانى الخفية . خاف أن تعرف
الأختان قصة الحب ، أخفى مشاعره ، ويكتاب الكيمياء كتب بخط منمق
دقيق فى أسفل الصفحة : كل يوم خطاب . لن أنسى !

ودعته الأم من النافذة ، وثرىا بعد أن حزمت حقييته الصغيرة تعلقت
فى رقبته وقبلته ولم تبك كعادتها ، لكنها دخلت الحمام وأغلقت الباب
وراحت فى نحيب . خيرية غمزت بعينها ، وقالت بلهجة من يخفى
سرا : الجوابات ، لا تقطعها . وإلا أغضبت أمك .

أشار لهم عندما وصل إلى الناصية بيده ، وكاد يصطدم بسوسن التى
رأته صدفة . مد يده وسلم عليها . ضغط على يدها الرقيقة وفى غمرة
اضطرابها ا قالت له : مع السلامة . وتركت منديلها الحريري !! قالت
أمى ، بعد أن قطعت حديثها لتعد لنا أكواب الشاي : ذهب فى اليوم الثالث من
مايو . . . وكنت أرى ساعى البريد يأتى بالخطابات والأم تنزل من الطابق
الثالث وتدعو الله أن يهب الساعى الصحة والستر فى الدنيا والآخرة . تميل على
أذنه تهمس : أصله مهندس كبير قد الدنيا . طول وعرض . ربنا يحميه .

تصعد بالخطاب ، تفتحها وهى تصعد ، تقبله ، تبص من الشيش
تتنظر البنات « ياه . . أتأخروا قوى . . يا مصبر قلبى . . سلمه لى » .

وفور عودة البنات تجلس على المقعد القطيفة الأزرق بالبروز الفضية ، تسمع كلمات الإبن الغائب ، والدموع تكاد تظفر من عينيها : « ربنا يخليه » .

الذى حدث صبيحة ٥ يونيو ١٩٦٧

حدثنى على يوسف فرو زميل مسعد المجذوب - اسمه الحقيقى مسعد إبراهيم الكامل - ورفيق كتيبة واحدة . قال : جئدت مع مسعد فى نفس اليوم ، وتم توزيعنا من إدارة التجنيد بالزقازيق على إحدى وحدات الجيش المقاتلة فى سيناء ، وقد حصلنا على تدريب مكثف فى مركز تدريب المعادى « أساس ٤ » كما مررنا بفرقة رشاش خفيف بالعامرية قبل أن نلتحق بالكتيبة . وقد تصادف أن ضمتنا نفس الكتيبة ، وشدنى إليه بروحه الشفافة المتفائلة ، ويريق الثقة فى عينيه . كان الوحيد فىنا الذى حصل على إجازة ٧٢ ساعة بعد تفوقه فى الرماية على هدف متحرك . وحين دُفعنا إلى « القسيمة » ركب معى نفس السيارة ، وسلمونا الخوذ المموهة ، والرشاش الخفيف ، وخزونات الذخيرة وخراطيش السجائر كهدايا . قدم لى خرطوشته ، قال لى : لا أدخن . سألنى : هل معك طوابع للبريد . ضحكت : حتى لو كان معى . أعتقد أن خطاباتنا تصل بسهولة إلى الأهل . إريد وجهه فجأة : لكنى وعدتها ! ريت على كفه " لاتحمل هما . فى إجازات الزملاء يمكن أن ندبر الأمر . تنهد وكأن هما قد انزاح : معك حق !

كان موقعنا على تبة عالية ، نكاد نسمع هدير الدبابات كل ليلة . لم يمض شهر على دخولنا الخدمة . وهانحن نشعر برائحة الخطر . الصحف تصل إلينا وكلها مانشئات حمراء ساخنة . الراديو عالى النبرة . زيارات القادة لاتنقطع فى الثالث من يونيو جاءنا قائد القطاع ، تفقد حقول الألغام ، واطمئن على كفاءة الأسلحة ، وكان بشعره الأشيب وابتسامته الواثقة ، وعصا الأبنوس بمقبضها اللامع يثير فى نفوسنا الطمأنينة . سألته الرائد مختار قائد السرية : هل حانت الساعة ؟

هز القائد رأسه ومسحه بنظره خط الأفق ، وتسمرت عيناه جهة الشرق :

أظن ذلك . كونوا أشداء . الحرب ليست هينة .

قالها وركب سيارته الجيب ، بعجلاتها المطاطية المستديرة ، مضى ، وتركنا ننتظر .

فى المساء جاءنى مسعد ، أمسك بيدي وسألنى : أسمعت الرجل ؟
قلت بهدوء : نعم ، سمعته . وأرى أنها فرصة لنحقق حلمنا بالانتصار !

رد مسعد : إنها الحرب . شىء لم نعرفه . أخشى أن تكون النهاية .
أننى أخاف من تلك الحروف الثلاثة . ح . ر . ب . الخوف أن أدفن هنا . ألم تسيطر عليك هذه الفكرة . كان يتحدث بحزن حقيقى . ويكاد يرتج عليه القول . قلت بلا مبالاة : إنها مخاوف طبيعية . لكنها سرعان ماتتبدد مع أول طلقة .

بعد يومين ، فى الصباح الباكر هجمت طائراتهم على مواقعنا ، تطايرت المدافع وألواح الخشب وأشلاء الرجال . كان هجومهم المباغت وصرخات الرفاق شيئاً مفرعاً ، وجدته يندفع نحوى ويده تتشبث بى .
أرأيت القتلى ؟ أشاهدت الدمار ؟ ذقنه مشعثة غير حليقه ، وجهه مصفر ، وأسنانه تصطك . حدثت فى الطائرة تباعد وتوالى القصف على هدف آخر ، قلت له : إنها الحرب ! وسيكون لنا الرد المناسب .

أمسك بذراعى : أعتقد ؟ هل نفعل بهم مثلما فعلوا بنا ؟

هزرت رأسى بين الشك واليقين : بالتأكيد !

ضاع صوته وانفجارات القذائف تحط علينا كالمطر ، رأيته يتشبث برشاشه ويطلق منه دفعات تلو دفعات ، وخوذه تهتز فوق رأسه . كانت دباباتهم تتقدم وتطوق المدفع . وأصوات الدانات تهدر . وترتطم بالتباب الصناعية . وهو لا يهدأ .

قال لنا قائد الكتيبة من خلال جهاز اللاسلكى أن الأوامر أتت بالانسحاب والتجمع عند الخط الدفاعى الأول . بدأ نصف الأجهزة الثقيلة ، أخذنا ننتظر سيارة لتحملنا إلى خط الدفاع دون جدوى . قال الرائد مختار : ليتصرف كل منكم بطريقته . إننى حزين لأجلكم .

قلت لمسعد : هيا بنا . لقد نفذ الماء . وسيحيط بنا الأعداء .

سمر وجهه جهة الشرق ، قال فى حدة : إتركنى . لم أحضر هنا لأتسحب دعنى وانصرف . كان وجهه أخرسا . وتركته !

كيف وجدوه ؟

ليست هناك دلائل مؤكدة على النحو الذى عثر به اليهود على المقاتل مسعد . إلا أنه من المرجح أن القوة التى كُلفت بمحاصرة وتصفية الموقع المتقدم بـ « القسيمة » قد صادفت قوة نيران مكثفة ، وأن الحصار استمر لعدة ساعات تم فيها إسقاط قنابل زمنية من الطائرات ، ولكن إطلاق النار لم يهدأ إلا فى الساعات الأولى من فجر السادس من يونيو . لقد اندفعت المجنزرات نحو الغرب قاصدة القناة ، وتركت الموقع كجيب صغير للمقاومة يمكن تصفيته .

وقد اعتقد الأعداء أن بالموقع قوة قُدرت بفصيلتين من المشاة والمؤكد أنهم ذهبوا حين وجدوه وحيدا برشاشه دون طلقة واحدة . كان منكمشا ومن حوله الطلقات الفارغة . لم ينطق كلمة واحدة ولم يعثروا معه إلا

على زمزية لا ماء فيها ، وعلبة صاج بها بعض الفول ، وبعض خطابات
بالعربية من فتاة تدعى سوسن ، وسلسلة الصاج وبها بياناته ، والغريب أن
مسعد لم يחדش رغم كل القذائف والطلقات .

من تقرير الصليب الأحمر :

جندى : مسعد إبراهيم الكامل

رقم : ٤٥٦٨٧٢٦

فصيلة الدم : ب

الجنسية : مصرى

تاريخ الأسر : ٦ - ٦ - ١٩٦٧

الحالة المرضية : شرود مستمر ، مع عدم الرغبة فى الكلام . بكاء
متقطع ليلا . يتناوبه أحيانا قدر من السرور ينتهى
بصراخ وعويل ثم شرود . لديه رغبة فى الانتقام من
الذات .

مشهد مفاجئ :

ظهر السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ كان يتخبط فى زحام الشارع .
الأطفال ذهبوا إلى مدارسهم وتركوه وحيدا . قدم له المعلم بسطاوى كوب
الشاي بالحليب - كصدقة - وتركه يجلس على العتبة ، صفق أحد الزبائن
وسأل عن الحساب ، دفعه وانصرف مشمئزا . نظر المعلم للزبون المتألق
تأمله فى انكسار : « ده بركة .. لكن الأيام » .

فى الثانية دوت صفارات الإنذار أشبه بالنواح ، أسرع الناس إلى الملاجىء ، واختبأوا خلف السواتر ، لم تأت طائرات ، لكن المذيع ظل يردد مارشاته العسكرية .

فى المساء عرف رجال الحى أن الحرب قد نشبت ، وأن الرجال قد عبروا . وحده جلس منكمشا ، فى عزلة الفقيرة . اقترب منه طفل وصاح : « الجيش عبر يا مسعد . » دفع له بالعصا ليرقص ، لكنه ظل على وجومه . « العساكر عبروا القناة يا با شمههندس » . حلق فى الظلام فقد أطفأت المدينة أنوارها وغرقت فى لجة الترقب والحذر .

جاء إسماعيل الحلاق من آخر الشارع يصيح : « مسعد . . أنت فىن ؟ » .

كان يعرف الحارة برجالها ونسائها وأطفالها ، لكنه لا يتكلم . لا ينبس . تحلق الرجال « المجذوب » . . راحوا يسألونه : « أتعرف عمر متلا ؟ . . أليست رمانة فى الشمال ؟ هل عبور القناة سهل ؟ »

ظل صامتا ، وجسده يرتجف ، ووجهه يتلون بكل ألوان الطيف برغم الظلام الدامس أحسوا ببكائه . كان يمد يده ويمسح عن وجنتيه خيط الدموع . عندما توغل الليل انصرفوا جميعهم إلى بيوتهم وتركوه لأول مرة محتضنا طوار الشارع ، متأملا العتمة .

فى صباح اليوم التالى ، تخاطفوا جرائد الصباح ، كانت العناوين الرئيسية تتوهج بالفرحة . أسرعوا إلى المقهى ، وجدوه نائما على ظهره ، وتحت رأسه كومة من القش ، وإلى جوار أذنه راديو ترانزستور . حدثه المعلم بسطاوى ضاحكاً « الأولاد وصلوا . . نهارنا أبيض نادى يا با شمههندس » .

فى نافذة المنزل البعيد كانت أمه بوجهها الهضيم ونظرتها المنكسرة
تبكى فى سرها . وحيدة بعدما تزوجت البستان ، وسافرت سوسن إلى
« بلاد الخليج » مع عريسها . تحسرت على شبابه الضائع ، وحظه العاثر .
إلى جانبها صبى فى العاشرة « آخر العنقود » !

رأته ، ودبت يدها على صدرها متألة : « البرد يا ضنايا » .

أصروا أن يحدثوه ، ويخدشوا شرنقة صمته المستحيلة ، التفوا حوله
يضاحكونه ، والأطفال الذين تعطلت مدارسهم لم يقذفوه بالطوب ، بل
وقفوا كأن على رؤوسهم الطير يراقبون كبارهم .

غلالة غامضة من السكون لفت الرجال ، ومسعد يقوم من رقدته ،
يخطف من أيديهم الصحف ، يقلب الصفحات وجلا .

صاح أحدهم : « ما رأيك .. لن يتركوا بنادقهم إلا مع النصر ؟ » .

فتح فمه ، وتحرك لسانه فى تشاقل ، أشار بيديه أن شيئا هائلا يمنعه ،
طفرت الدموع من عينه ، وهو يتأمل ثيابه الرثة ، كأنه يراها لأول مرة .
نظر إلى النافذة البعيدة ، كانت أمه . عاد يتصفح الصحف ويحدق فى
صور المقاتلين . نطق بصعوبة جملة واحدة :

« أنا .. حاريت » .. « أنا .. حاريت » ثم سقط مغشيا عليه !

ملحوظة هامة لايسكن حارتنا :

حملوه إلى المستشفى القريب ، أخبرهم الطبيب أنه فى طريقه إلى
التحسن . عاد إلى منزله . خلع خرقة البالية ، ارتدى قميصا وبنطلونا
جديدين . حلق ذقنه الطليقة . افتتح دكانا لبيع الكتب القديمة . بعد ثلاثة
أعوام من حرب أكتوبر تزوج بتا من قرية « الشعراء » أنجب ولدين . صار
له أصدقاء . إلا أنه ظل صامتا حتى كتابة هذه السطور !

القارب

عندما أمسكت الخالة مباركة فنجان القهوة لتقرأ لى الطالع ، حدثت فى الشرخ الذى كان يصفى على الخزف الضارب إلى الصفرة ملمحا من القدم .

قالت وهى ترسم بأصابعها الدقيقة فى الهواء خطوطاً وهمية تتشابك وتتقاطع : أمامك طريق صعب كله عوائق ، لكنك ستجتازه . ضحك صديق لكلماتها ضحكة باهتة ، قال لها وهو ينظر من الطاقة إلى البحيرة الممتدة أمامه بقواربها المتناثرة فى فوضى محببة : دائما تذكرين هذا الطريق .

سكت قبل أن يكمل . كان يحس شعورا بالضيق يتزايد . خرج إلى حوش الدار .

كانت البحيرة على بعد خطوات : جماعات من الأور راحت تعوم ، وتغمر رأسها فى الماء للمحظات ثم ترفعها فى تتابع ..

كان الطفل حميدو ينظر إلى هذه الحركات ، ويصفق يديه ، ثم يقوم بوضع رأسه فى الماء ، يتفرض فجأة ويسعل بشدة .

أشار له صديق أن يكف عن هذا الفعل إلا أنه عاود لعبته . اقترب منه وجذبه من يده . أبعده عن الماء . نظر إليه الطفل فى غضب مصطنع ، قال له : إننى أبحث عن نقود وقعت منى بالأمس هنا !

وأشار بسبابته إلى ماء البحيرة ، بينما كانت زوارق الصيد على البعد تأتى مسرعة ، المدارى وأذرع الرجال العارية ، والشبك المفروود على ظهر الزوارق ، والفرح تلتمع به الأعين ، والأطفال تقذفهم منازلهم من جوفها بأكياسهم الخالية فى انتظار الرزق .

كان الصرير الخافت يعلو شيئا فشيئا بينما النورس يرسم أقواسا وهمية بجسده فوق الموكب الآتى . ألقوا المراسى ، الشباك والسلك ، آمال اليوم ورزقه .

- أهلا صديق . متى وصلت ؟

- بالأمس فقط .

- حمدا لله على سلامتكم . كنا نود أن تسرح معنا .

- ومتى تذهبون للصيد مرة أخرى ؟

غداً إن شاء الله . فى الفجر سوف نطلع .

- لقد انتظرناك طويلا . والدك قال أن موعد إجارتك قد اقترب .

- أين هو ؟

- فى الزورق القادم . أنت تعلم أنه يتعب كثيرا ، فهو يعمل بمفرده . وعندما يجر بالمدواة فإنه يلحق بنا بصعوبة . .

خلع صديق جلبابه المكوى ورمى به على الحشائش الخضراء النابتة على الشاطئ ؟

راح يخوض بصدرة العارى مياه البحيرة . اقترب من الزورق ، صاح فى فرح : أبى . . أبى !

تهدج صوت الأب وهو يصيح : من . . ابنى صديق . . ابنى ؟

تعلق بالزورق ، صعد ، عانقه فى حرارة ، جذب المدراة من يده . تشبث بها الأب وارتجافه البهجة بالابن . قال أنه مازال قادرا على العمل . رجاء صديق أن يترك المدراة ليصل بالزورق إلى الشاطئ . جلس على الحافة ، تركه يفعل ، تنهد .

كان الرجال يرقبون المشهد فى مشاعر متضاربة من الأسى والفخر
والدهشة ، وعندما راحت أغواء البردى تعوق مقدمة الزورق ، وضع الأب
يده فوق يد الابن ، تنتزع النباتات الطافية ، ثم بدأت الضربات تنتظم :
طاش .. طاش .. طاش !

وصل الزورق إلى الشاطئ . سأل الأب : مامدة إجازتك ؟
أجاب : ست أيام . سوف تستريح فيها لأذهب إلى البحيرة بدلا منك .
تنفس الأب فى ارتياح ، وقد تندت عيناه بالدموع : رجل ابن رجل .
على عتبة الدار كانت الأم تقف قلقة تنتظر العودة .

* * *

هبط المساء على المقهى سريعا . كان الرجال يتجاذبون أطراف
الحديث ، بينما البحيرة تبدو ساكنة وقد هجرها جماعات الأور ، وطيور
النورس راحت تبيت بين أفرع الأشجار القريبة . حتى الزوارق ترقد فى
استسلام على الشاطئ المتعرج .

قال عم نويصر هو يشير إلى نجم فى السماء يعرفونه جيدا : سوف
ترهقنا عواصف الغد !

رد الأب : ستتغلب عليها مهما كانت عاتية :

جاءت أكواب الشاى الساخن ، ورحب صاحب المقهى بصديق :
أهلا وسهلا .. يقولون أن الجبهة تغط فى سبات عميق .

ضحك صديق وهز رأسه فى نفى ثم رد قائلا : بالطبع لن أخبرك
بالتفصيلات . لكن أستطيع أن أزعم بأننا على أهبة الاستعداد للحرب .

قال محروس مشيحا بيده : نسمع هذه الكلمات منذ سنوات .

رد صديق : يوم تتكلم البندقية ستخرص كل الألسنة .

كانت النجمة التى أشار لها عم نوبصر تتوهج على غير العادة . وكان الليل قاسياً !

* * *

كان سوق الأحد يكتظ بالبائعين والمشتريين الذين أتوا من القرية التى يسكنها صديق والقرى المجاورة . وقع نظر صديق عليها . فى الزحام تاهت منه . راوغته والأقدام تثير عنادا ، لقد انتظر هذا اليوم طويلا . لا بد أن يلتقى بها : هند ، حبيبته . . التى قرأ فائقها منذ أسابيع . وأصر أبوها على ألا يلتقيان إلا بعد انتهاء صديق من فترة تجنيده . بعدها يتم عقد القرآن .

كم حاول أن يقنعه أن الدنيا قد تغيرت . وأن عليه أن يساير العصر ، ويسمح له بالخروج مع خطيبته . إنهم فى المدن يفعلون أكثر من هذا . لكنه رفض الخوض فى الموضوع ، رفع يده معترضا : بناتنا شيء ، والبندر شيء . عندما تتزوجها افعل بها ما شئت !

لقد انتظر هذا اليوم طويلا . وهو لن يسمح لنفسه أن يراها ولا يحدثها .

إذن كيف يلقاها والزحام يمنعه من رؤيتها ؟ هداه تفكيره أن ينتظرها فى الطريق .

كانت الشمس فى مثل هذا الوقت حارقة . جلس فى ظل شجرة كافور ضخمة ينتظر .

مرت ساعة . بدأ القلق يساوره . وسرعان ما رآها قادمة على الطريق . تركها تمر أمامه . لم تره . مضى خلفها . صوته المرتجف خرج بصعوبة : صباح الخير ياهند . . نظرت خلفها ، اصطنعت الدهشة ، لكنها كانت تعلم أنه بالبلدة منذ يومين ، اصطبغ وجهها بحمرة الخجل : صباح الخير . . يا صديق !

- أين كنت ؟

- فى السوق .

- ماذا اشتريت ؟

- بعض الأقمشة ، وزجاجة عطر لأمى . . و . .

- لكنك للمرة الأولى تخرجين بمفردك ؟

- لقد ذهب أخى محمود مع أبى إلى البندر .

- اننى أنتظرت هذا اليوم طويلا ياهند .

-

- هل تعرفين ماذا أريد أن أقول لك ؟

- لا أعرف .

- أحبك .

-- عيب هذا يا صديق . أمى تقول أن الحب عيب .

- ستصبحين زوجتى ، وسوف يكون لنا منزلا جميلا ، وطفلا وطفلة .

ضحكت ضحكة سريعة ، قالت أمه : أتعرف أننى أحبك لك صديريا دون علم أحد ؟

- ومتى تنتهين منه ؟

- عندما تأتى الإجازة القادمة .

- أنت أعز إنسان لدى .

- وأنت :

أراد أن يحتضنها ، يقبلها ، يحتوى وجهها الملائكى . لكنه لم يفعل .
سلم عليها وظل يرقبها وهى تمضى للقريبة .

* * *

عندما أخذت الشمس تداعب سعف النخيل المترب ، ساحبة أشعتها
الدافئة ، عاد صديق إلى المنزل . قابلته أمه على الباب : هناك من ينتظرك بالداخل .

صافحه ، رجل نحيف ذو وجه صارم . أخبره أنه من « المركز » قدم
له ورقة مطوية ومختومة بخاتم أسود مستدير يعرفه جيداً . طلب منه أن
يوقع بالاستلام . خرج فى عجلة . فتح الورقة ، قرأ : « عريف صديق
أبو سالم . اقطع إجازتك : احضر الكتيبة فوراً » .

التقت عيناه بعيني الأب . نظر إلى ساعديه المعروقين . لوجه أمه .
احتواه فى نظرة طويلة . طاف خياله بالبحيرة : زوارق ، جزر ، مكامن ،
أصحاب . قال فى همس : سأرجع الكتيبة الآن !

* * *

- فليأخذ كل مكانه .

هاهو القارب الذى حلم بركوبه طويلاً . سترة الفلين وشدة الميدان .
خوذته وسلاحه .

الضربات المنتظمة ، وشمس الظهيرة : طاش .. طاش .. طاش :

البلدة ، مأذنتها الشامخة ، البيوت الطينية المغطاة بشباك الصيد .
الأب الكهل ، واليد المعروقة ، نظرات الأم الحنونة ، هاهى تحسب الأيام
على أصابعها . وتنظر إلى القمر حيث يستدير فى فرحة . وإلى الكتاكيت
حيث تحمر أعرافها ، وتصبح فى خفوت : كو .. كو .. كو . بحة
خفيفة تعترى الصوت ، تضع عندما يتبدل الزغب ريشا .

حميدو الصغير . رأسه المبلل بالماء ، صنارته الغاب ، وصندله الممزق .

هند ، خطيبته ، تطرز الصديرى الأسود كى يرتديه عندما يعود .

- انتبهوا .. اقتربنا من الشاطئ .

الأقدام تلمس المنحدر الرملى . العلم الذى غرسوه فى أعلى التبة ،
انتزعه حين عاد من إجازته من أعلى صارى زورقه . كتب عليه اسم بلدته
وغمسه فى ماء البحيرة . الأيدي التى أمسكت بالمدراة هى التى تمسك
بالبندقية .

- هيا .. لنحاصر النقطة الحصينة .

* * *

بعد ساعات قليلة سقطت النقطة القوية للعدو فى أيديهم . تقدموا فى
العمق . كان الليل قد أتى . كتلة متوهجة من النار والضوء والصرخات
والشظايا . تستبيح الفضاء ، وتغترف الأرض . أخبرتهم جماعة الاستطلاع
أن قوات العدو المدرعة تتجمع فى الخلف للقيام بهجوم مضاد . كان عليهم
أن ينصبوا له عدة كمائن فى الاتجاهات المحتمل التقدم نحوها .

كان صديق أحد أفراد المجموعة الرابعة . بدأوا فى تجهيز الموقع .
قبعوا فى انتظار أى تحرك للعدو . الأنفاس مكتومة والمدق القريب ينتظر
قدومهم . دقائق كأنها دهر . بمرارة سنوات الانتظار ، وأتت دباباتهم
« الباتون » يسبقها الغبار والضجيج . انتظروا حتى دخلت مرمى أسلحتهم
المؤثرة . . . وبدأت القذائف تخترق الصمت ، ودروعهم الفولاذية تنهار ،
وتتحول إلى كتل من الجحيم .

- عظيم يا صديق . أصبت دبابة المقدمة .

كانت الإصابة أسفل البرج ، بينما حطم درويش بقذيفته جنزير الدبابة
الخلفية . أصبحت دباباتهم صيدا سهلا للقذائف . قفز أفراد الأطقم
فارين . حاولوا الاشتباك معهم بأسلحتهم الشخصية .

أمر الملازم حمدى قائد المجموعة : ليتقدم مختار وصديق ويسرى
ومحمود لأسر الأطقم الهاربة . ليق درويش وأحمد للتغطية . ساقود
الهجوم معكم . . تقدموا .

قذف أحدهم قبلة يدوية على الموقع ، أصابت الشظايا صدر صديق .
زحف مختار ويسرى ومحمود تجاه الفارين . تمكنوا من الإحاطة بهم .
حاصرهم رشاش يسرى الخفيف . كان صديق يتزف دماً قانياً .

الإصابة خطيرة . وقذائف الهاون تمطر « أقوالهم » الخلفية على الموقع
الجبرى . نطق بصعوبة وهو يرتجف : اتركونى . . الله . . معكم . .

لم يكن هناك وقت للبكاء ، القلب وحده يرتجف . الجنود يحاولون
الهرب . تصنع البنادق الآلية ورشاش يسرى دائرة من جهنم .

يرفع أحدهم يده مستسلما . يده تنزف . ييكى فى عصبية زائدة .
الملازم حمدى يرفع صوته : لاداعى للمقاومة :

فوق الرمال جسده يهتز وصوته الأليف يجتاح الموقع : أمى ..
أبى .. حميدو .. هند

- لا تتكلم .. أنت تنزف .

- بلدتى .. المقهى .. أصحابى .

- ستعود لكل شىء . ها هى الأرض نستعيدها .

- والبحيرة ؟

- أي بحيرة ؟

لم يجد للسؤال أى رد . أرتشعت الكلمات على شفثيه . قال الملازم
حمدى : لقد أدى واجبه .

وعندما جاءت لحظة مواراته التراب ، اكتشفنا أن صديقا يقبض على
حفنة من رمل سيناء الطاهر !

* * *

رائحة بارود قديم

مضى يوم الاستجمام بالديبة وتفرغت تماما للمهمة . كانت خطتنا محكمة غاية الإحكام ، فلا مجال لشجرة واحدة يمكن أن تودى بطموحتنا . أعددنا الأمر بدقة متناهية . قال مصطفى : إنها فرصة العمر . أضاف عبد الرازق : لو تحققت الأمنية لطردنا الفقر إلى غير رجعة ! أغضبني الشرقاوى الذى أرهقنى مع ارتجاج السيارة خلال عبورها الكوبرى المعدنى المطلى بالرمادى ثم مرورها بمساحات الخضرة الرائقة بحكاياته التى تمجد ذلك الحاكم بشاريه الكث الذى يتعبنى أن يتسم دائما فى صورته الملونه على أغلفة المجلات بلا سبب قال يفحمنى : أنه يدخل أى منزل يقابله ، وخبط الباب بأصابعه ، ثم يتجه إلى الشلاجة ، ويتناول عنقودا من العنب أو مشروبا باردا ثم يجلس فى صحن الدار بكل تواضع ! قلت له أن ذلك لا يعجبني ، وأثنى لو كنت صاحب البيت لما فرحت بتلك الزيارة ؛ لأننى لا أقبل أن يدخل منزلى غريب بلا سبب ثم يفتح ثلاجتى دون إرادتى ويعبث بمأكولاتى ! أوقف مصطفى السيارة لإصلاح « الشكمان » . كانت مساحات الأخضر المعشوشب تمتد إلى خط الأفق حيث الزرقة القانية .

نظرت إلى الأشجار التى بدت زاهية ومصفوفة ، ثم حملت فى ساعتى وتنهدت بعمق .

جاء من خلفى وإصراره العنيف على اقناعى بوجهة نظره يطاردنى . بدد هدوئى ، فاستسلمت لحديثه بينما رأسى يدور وعقلي يهوم فى اللاشئ . كان يتبعنى إلى منحدر جانبي حيث زير الفخار يعلوه غطاء خشبي وأعلاه كوز من الصفيح . شربت ، وتفصد وجهى بالعرق قبل أن أنتهى من تجرع كوب آخر .

شربت ونبرات صوته تذبحنى : لقد قابل عجوزا بُهت عندما رأى
الزى العسكرى والنياشين الموشاة بخيوط الذهب . أسرع بتقيل كتفه على
عادة أهل تلك البلاد . فماذا منحه ؟

نظر لى ، وتبينتُ أن مرارة الأيام الفائتة قد توغلت فى صدرى فلم
أفتح فمى بكلمة تابع حديثه بافتراض أننى سألت بالضرورة : ماذا منحه ؟
ابتسامته كشفت عن سنة ذهبية فى مقدمة الفك الأسفل : منحه معاشا
كبيرا ، وأمر بتجهيز بناته الثلاثة .

قلت : والذين لم يقابلهم كيف يدبرون جهاز بناتهم . الأرائك
والمفروشات والثياب والطرسوت ؟

لم يرد ورمقنى بنظرة عدائية . ركبنا السيارة بعد أن انتهى صبى
الميكانيكى من عمله .

كنا - نحن الخمسة - نحلم بتحقيق حلمنا ، وأيدينا تعبث بالأوراق
الممهورة بإمضاءات كبار المديرين وأختام سوداء من كل نوع ، والتصديق
النهائى موثقاً من وزارة الخارجية والطابع الأزرق الصغير الذى يتجاوز ثمنه
الجنيهات العشر .

محل أثاث قديم فيه أطقم الأرابيسك شاهدته أول أمس فى حى الدقى
وأنا أدب بخطواتى معفراً مروراً . وقفت أتفحص قطع الصدف العتيقة
بينما رائحة القدم تغزونى . كنت راجعا من مكتب التوثيق الرئيسى ،
والأمل يداعبنى فى عقد العمل المجزى .

قال المغلاوى وجسده الصغير يزاحمنا فى المقعد الخلفى : يجب أن ندخل القاهرة قبل أن يحل الظلام : قالت زوجتى وهى تعد الحقيبة : أن الدية شاطيء مهجور ، وأن المصطافين قد زاحموا الصيادين حين أتوا إلى هذا المكان .

رمقتنى بأسى : لكن قناديل البحر تفرز سمومها فيطفح الجلد ببقع حمراء . وأن المراهم لاتعالج التقرحات بل تزيدها تهيجا .
كنا قد عدنا لتونا من الشاطيء . قالت لى وهى تربت على كتفى : لاتسافر . دعنا نستمتع بالحياة بين أهلنا .

قال الحصرى على المقهى وهو يحذرني : لقد فقدت أسنانى هناك ، وضاعت روح الشعر منى . فى أحيان كثيرة أجلس بين أوراقى باحثا عن معنى فتخرج الكلمات باردة ميتة ، أتعرف أننى أغلق الباب على وأبكى !
قلت : إن الأمر ليس بيدى . وأن الأولاد قد أتوا ، وعلى أن أؤمن مستقبلهم .

هزنى الحصرى من كتفى ، وغمرنى بدفء مفتقد ، راوغتنى نظرتة المهزومة . قالت لى والسيارات تشرق على الطريق الأسفلتى المترب ، بينما اللافتات البراقة تعلن عن رحلات العمرة السياحية :

إن تلك البلاد خيمة كبيرة من جهنم ، لها أوتاد من نار .

قلت لنفسى وأنا أقلب الأمر فى عقلى : الودائع المغلقة ، وحقائب السمسونيت المحشوة بالدولارات ، الخلطات الكهربائية ، والساعات الالكترونية وقمصان الحرير الطبيعى !

اختلجت شفتاه بكلمات هامة ، وكان قلبه الذى لم أره يتزف :
غررت بنا النقود وعدنا بشر بلا مشاعر . ألا تصدقنى ؟

« ألا تصدقنى » تلك العبارة التى لها رائحة البارود . من كان يقولها
أيام الجندية أنحنى لأنقب فى الذاكرة عن صاحبها فيبتسم فى وجهى سعد
الزميتى بعد أن تصالحنا :

أنا من عائلة باشاوات . ألا تصدقنى ؟

خلع الحصرى ساعته الجديدة ، قدمها لى هدية . كان قد احتضنتى
عندما قابلنى أول مرة بعد سفره الطويل . قال لى فى المنعطف أنه اكتشف
جهازا لحل كل المشاكل .

وأن على ألا أسافر لأن هذا الجهاز سيدبر أمرى ؟

كدت أفقد تماسكى . خشيت أن أصدم مشاعره . وطأة الأعوام التى
مرت منذ اختفى . كانت ثيابه مهندمة وأنيقة . يتحدث كإنسان أثرى بعد
عوز . . أتى بالأموال ودفتر الشيكات قلت له بأسى ، ونبرات حزن
تجتاحنى : لا بأس أن تعرض نفسك على طبيب نفسى .

كانت نظراته قلقة ومتوجسة . هز رأسه : أشعر أن شيئا فى عقلى قد
شاخ . لكن الجهاز حقيقة لامراء فيها . طلب من الجرسون فطيرا
وشطائر لحم .

اقتربنا من شبرا ، وبدا الزحام لعينا . هبط الظلام رويدا رويدا ،
ففتحنا نوافذ العربة ، ونظرنا للنيون وأضواء المحلات . عبرت امرأة تركت
من خلفها عطرا كتم أنفاسنا .

قال مصطفى : سنصل فى الموعد المناسب . سنعاين المكان بكل دقة . وسنوقف العربى فى الموقع الملائم . لكن علينا أن نكون فى المقدمة مهما كان الثمن .

تحسنا مظاريفنا فى لحظة واحدة ، وتأكدنا أن الأوراق جاهزة مرة أخيرة . فى الدية جلست زوجتى تحت المظلة ، وخلع الأولاد ملابسهم ، وأحاطوا أعناقهم بإطارات المطاط . شع وجهها بالفرح ، وضغطت على يدي بامتنان : احرص عليهم . لاتدعهم يغيبوا عن نظرك .

كان وجهها جميلا وصيبا ، والبهجة تكاد تطفّر من عينيها وهى تمد يدها بالجاروفات والدلو البلاستيك .

سبحت على ظهري ، وأغمضت عيني ، وانصبت فى رأسى فجأة همهمات غامضة لتلك الأيام البعيدة حيث كانت الدية منطقة عسكرية قضيت فيها أيام الخدمة الأولى رأيت وأنا قادم على الطريق الساحلى الذى أعرفه جيدا مئات الحفر ، وعوائق الدبابات الحديدية وملاجئ الأفراد والذخيرة كلها بانّت مهجورة .

خفت أن أفسد عليها بهجة هذا الصباح وأرهقها بحكاياتى الأسبانية عن رفاق الم . ط الذين تصدت صدورهم لدبابات « الستوريون » حين عبرنا فى السابع من أكتوبر .

كانت أصواتهم المبحوحة تحيطنى وأنا أخبط بذراعى الماء . وأولادى الثلاث يلهون ، ويرشون الماء على وجوه بعضهم البعض . نداءات فزعة وصرخات متحمسة مغموسة فى البارود تأتى واهنة ، والهواء يمر راعشا ، بينما طيور النورس البيضاء قليلة ولها صوت حزين . أحيانا يدور نورس

وحيد محلقا فوق رؤوسنا ثم يحط فجأة على صفحة الماء ليلتهم سمكة صغيرة تبرق زعانفها وقشورها الفضية في الشمس بوميض يخطف الأبصار .

تقول أنه مكان للصيادين . ألم تر حديد المواقع المهجورة ، وفوارغ الطلقات النحاسية التي علاها الصدا ، وتلك الملاجئ التي انظمرت فتحاتها وباتت تأوى الكلاب الهزيلة والسحالي وحشرات زاحفة من كل نوع ؟

حين صدرت أوامر الصباغ عبد الحى المليجى أخلينا هذا الموقع وسرنا فى القول مع نداوة الصباح . كانت الأنساق الأولى قد تقدمت . طيلة الليل وبوارج العدو تضرب الشاطئ الذى تركناه خلفنا لسرايا أخرى ، وتقدمنا لتعزيز الهجوم من ناحية بورسعيد . لمحنى الصباغ وهتف بى : أخيرا يابطل رفعت قبضتى : أخيرا !

فى اندفاعنا المفاجئ نحو المدق الأسفلتى جاءت إشارة لاسلكية من مخابرات الفرقة تحذر من طلعة طيران معادية . انتشرنا داخل حفر برميلية جهزناها على عجل . قبل أن ننتهى من الحفر جاءت طائرات الفانتوم تدك المواقع التى غادرناها . ثم جاءت طائرات أخرى وحلقت على ارتفاع منخفض وحصدت بطلقات الفيكز مؤخرة القول المتحرك . استدار طاقمنا وصوب طلقاته من الحركة ليوقع بمقاتلة إسرائيلية هوت فى اللجنة الزرقاء فازعجت النوارس التى طارت متحيرة .

سقطت قنبلة مباشرة على الطريق فعجنت جسد ماهر الطناحى بالأرض . أما يسرى فقد أطاحت بساقه شظية . أمسك بها وهو يتزف . زحف باكيا مولولا : ساقى .. ساقى .

أسرعت عربة الخدمة الطبية المموهة به إلى المستشفى ولم يعد بعدها .
عرفنا أنه فى الطريق نzf الكثير من دمه وكان مازال يصرخ : ساقى . .
ساقى . وآخر ماطلبه رشفة ماء من زمزمية السائق . بعدها عبرنا الكوبرى
ودفعنى الصاغ مع الزميتى فى مهمة سرية لاستطلاع اللواء كنا نعمل كمفارز
غير مجهزين سوى بأسلحتنا الشخصية وجهاز لاسلكى . أشار لنا أن نتم
مهمتنا بمنتهى الحذر ودفع لنا بخريطة تفصيلية للمنطقة وتجهيزات إضاءة
للطوارئ .

أشارت لى أن أرجع . كان تيار الماء يجرفنى إلى قلب البحر . لكن
الأمواج بدت هادئة ، واستبدت بى الرغبة لأبكى . لم أعرف لذلك
سببا . لوح لى الأولاد ببهجة أن أعود لأشاركهم « البلبطة » . عدت
منهكاً . قالت لى : مابالك ؟ وجهك ممتقع . قلت لها أخفى ذكرياتى :
لعله التفكير فى السفر . لا أعرف كيف أترككم ؟

قالت لى بنبرة فيها لوم : ألم أقل لك . كيف تتركنا ياثروت .

أخرج عبد الرازق رقعة الكرتون وقرأ بصعوبة عنوان السفارة . قاد
مصطفى العربة إلى المكان بنرفزة . كانت أبواب السيارات تعصف
بأعصابنا . المهمة محددة ولن نرجع قبل أن نتمها . بدت سيارتنا قديمة ،
ومتهالكة وسط طوفان السيارات الفارهة التى تلمع تحت أضواء النيران ،
وانعكاسات مصابيح الصوديوم . اقتربنا من ميدان الحجاز ، كانت العتمة
قد هبطت تماما لتحوط الناس والسيارات وحوائيت السوبر ماركت . شعرت
بضآلتى والبنىات العالية تواجهنى بغطرستها ، والبنات الفارعات المشوقات
يعبرن الطريق فى زهو . والمغلاوى متزو إلى جوارى كفأر يقرض أوراق
سفره المقترح . أما رضوان فقد كان يخرج رأسه ليسب الليل والسيارات
كمحموم يصيح بالمارة كلما صفعوه بنعومتهم وملابسهم المهندمة : نحن نمل !

قال الشرقاوى أن الناس فى تلك الدولة التى سندهب إليها لايتشاقون ولايتشاجرون ، بل هم فى جلاليتهم البيضاء النظيفة يسرون بغاية الأدب فى صمت . وإذا أطلقت رصاصة فأردت أحدهم قتيلا ساروا فى طريقهم دون أن يلتفتوا حولهم .

قلت متشفا : أحسن ! . حين أشعل مصطفى عود الثقاب اقتربنا من الشرطى وسألناه عن المكان . أشار بيده فى الاتجاه المعاكس . كانت اللوارى الضخمة تتوارى فى المنحنيات ، ومن فتحات السلك تطل خوذ ممهوه بينما العسكر منكبون فى أحاديث خافتة .

عبرنا فى حرص الميدان ثم اتجهنا نحو البوابة الحديدية الضخمة ، نزلنا من السيارة ، وأشعلنا عود ثقاب لتأكد من كوننا فى المكان الصحيح . بدت قطعة النحاس لامعة ومصقولة ، ورمز السلطنة واضح تماماً تأكدنا أنه المكان حين لفت أنظارنا أجساد الرجال النائمين منطرحه على امتداد السور . بعضها ملتف بأوراق الصحف ، وبعضها يتوسد حقييته ، وآخرين بلا غطاء .

غمزت لمصطفى أن فرصتنا سانحة لأننا لن نشعر بالإرهاق حيث أتينا فى الوقت المناسب وستكون معنا الأغطية التى جلبناها معنا وهى تكفى تماماً .

قال المغلاوى وهو يرتقى بكل جسده فى المقعد الخلفى : علينا أن نحضر طعاما ثم نعود لنحتل أقرب مكان من البوابة .

كانت الشوارع الجانبية معتمة ، وبدت البيوت كأشباح يهيمن عليها العبوس والكآبة . التوافذ ذاتها لا تعطى الضوء .

اعتذر رضوان لأنه لم يحضر وسادة فأشار عليه مصطفى أن يشاركه وسادته وصاح فينا : سأحضر لكم خبزاً وقطع من الجبن . . مارأيكم فى بطيخة ؟

وافقنا جميعا أما رضوان فقد اقترح أن نشتري كيلو جرامين من المانجو ! لطمه مصطفى فى مرح : يامحروم . عندما تذهب هناك وتمسك بيدك الدنانير . اشترى الوكالة نفسها .

ركبنا السيارة وأغلقنا الأبواب بقوة دون قصد . على صوت الارتطام صبحا بعض النائمين فى فزع ، حركوا رموشهم فى صعوبة ولما اطمثوا أن الوقت مازال ليلا أغمضوا عيونهم وعادوا النوم .

انطلقنا بالسيارة نبحث عن طعام . كنا نغوص فى المقاعد المتهالكة بكل تلذذ وكأننا امتلكنها الدنيا ، ويد مصطفى تضغط على النفير فنشعر بأننا مختلفون . على الأقل معنا وسائل وأغطية ! على الطوار المواجه للسفارة بدت أشجار النخيل سامقة وشامخة . منزل وحيد ذو شرفات واسعة ظهر على البعد ، وفتاة جميلة تعقص شعرها بفيونكة حمراء ، كشفها الضوء وصوت موسيقى رقيقة انسابت فى نعومة وهى ترقص . دقت النظر كانت مصرية التقاطيع .

وقفنا كالبلهاء نتفرج بعد أن أوقف مصطفى السيارة . حرصنا جميعا على أن نمتع أبصارنا ونسرق تلك المتعة دون صوت . انتبهت فجأة لوجودنا . لوحت بيدها فرحة ثم اندفعت إلى داخل الشقة . بدت الفرندة موحشة بدونها .

تركنا السيارة ولوح عبد الرازق بيده متضايقاً : هل سترك كل هذا الجمال ونذهب للصحراء ؟

هزه مصطفى حانقاً : أقرع ونزهى !

قال الشرقاوى : إن الدولار هو سيد الموقف وقيمته فى ازدياد ، وأنه قد اشترى أرضا ، وبنى منزلا من عمله بالخارج خلال ست سنوات . وأنه

يسعى لعمل عقد جديد ليكمل السباكة نظر بعضنا إلى بعض فى حسرة وضيق ، أما نظرتة فقد بان فيها التوجس .

كانت كلاب كثيرة تقابلنا ، وكلما رأتنا نبحت وعكرت صفو الهدوء .
ذلك الهدوء البارد الذى لا يحمل طعما !

هل كان بيدى أن أنقذه حين هوى برج المراقبة بأسياخه الحديدية ونخلع عظم الترقوة ؟

كنت أرى القذيفة وكأن لسانى قُطع . أشرت له بيدى أن ينطرح أرضنا . أنا نفسى وقفت كالعصا . حين انفجرت القنبلة شظايا وسقط العمود ليخلع كتفه صرخت صرخة مروعة سمعها كل من فى الموقع ، أسرعوا لينقذوه . لكن نظرتة الملتاعة كانت تلومنى . وقفت أخمش وجهى بأظفارى . قال الصاغ عبد الحى لأهدأ : لاعليك . قدر مكتوب . الموت يختار صاحبه . ماذا كان بمقدورك أن تفعل له ؟

فى الثامن من أكتوبر وبعد يوم من عبور سريتنا القناة كان بمقدور سعد الزميتى أن يفعل ما لم أفعل . حين سقطت قنبلة ألف رطل وغاصت فى الأرض الرملية ولم تنفجر ردمت ملجأ الذخيرة . حاولت أن أوسع لنفسى طريقا . كانت ألواح الصاج وعروق الخشب متشابكة ، وكنت التقط أنفاسى بصعوبة . صرخ الصاغ عبد الحى أن يتعد العساكر جميعهم عن الموقع ، فهناك احتمال كبير أن تنفجر القنبلة فى أى لحظة .

وحده اشتعل رغبة فى أن ينقذنى . لم يكن صديقى . كنا خصمين لدودين كان يضيق على فى تصاريح الإجازات لأنه فى مكتب الأفراد . وكنت أعايره بأن طلقاته فى الرماية طائشة .

فى ذلك اليوم الذى تشاجرنا فيه ، ولطمنى على وجهى ، وأدميت
بقبضتى أنفه ساقنا الصول رفعت مكتب مذنين . كان أخميمى الملامح له
ضراوة الصوان ورأسه مليئة بالعناد .

مد يده فخلع كابه ومددت يدى ، صدرت الأوامر بحبسنا أسبوعين
بعد أن خلعنا القايش والبيادة وحلقنا شعر الرأس « زيرو » . بعدها لم ينظر
أحد منا فى وجه الآخر إلا ليضحك . قصوا شعر الحواجب والشارب ،
لقد صرنا أصدقاء وقدم لى سجائره .

لكنه أتى فى اللحظة الفاصلة التى تسبق الموت كالحلم الخاطف شعرت
بطائر أسود يتقضم ليمزق قلبى وكانت رؤيا من نار حين تحركت شفتاى
لتنطق الشهادتين . أغمضت عينى وللحظة سمعت نبشا آتيا من أعلى .
ضربت بقبضتى ، صرختى مكتومة أنا هنا .. أنا ..

زاد النيش وابتلعت رملا وبارودا محترقا . فجأة أحسست بهواء طارج
يندفع من فرجة ضيقة تعلو رأسى . أعدت صراخى ، فوسع الفتحة ومد
يديه ينتشلى من بين فوضى الأعمدة الخشبية وقطع الصاج وبقايا الجراكن
المنصهرة . ضحكة الأخميمى كالأبنوس . نظرت نحوه بامتنان ..

اشترينا الخبز وقطع الجبن وابتعنا بطيخة على السكين ، وحملنا كل
ذلك فى أكياس النايلون ثم اتجهنا بالسيارة إلى المبنى حيث الساحة
الواسعة ، أوقفناها بجوار السور مباشرة وعلى مقربة من البوابة الحديدية .
تناولنا طعام العشاء ، وجاء مصطفى « بالترموس » وصب لنا شاي ساخنا
جهزته أم العيال قبل السفر . تأملت البخار يتصاعد بزهو رغم العتمة التى
لفت الأجساد المترابطة بجوار السور .

تأملت ساعتى ، ونصيحة الحصرى توخزنى ، وحديثه عن الجهاز الذى يحل كل المتاعب يبدد أمنى .

سحب مصطفى غطاء السيارة السميك ، وفرحنا ونحن نبسطه على الأرض بجوار البوابة مباشرة . ثم أحضرنا الوسائد وحاولنا النوم : أنا ومصطفى وعبد الرازق بينما فضل رضوان والشرقاوى أن يناما داخل العربة .

أخذتنا سنة من النوم ، ولمحتها بثوب الشيفون الأحمر الشفاف ، ويشفتيها المكتنزتين بطلاء الروح تشير لى . أعطيتها ظهري ، لكن غلقت الأبواب وقالت بنعومة : هيت لك : قلت لها أن الأعداء قد ضربوا الدية بالصواريخ وأن الرمال نفسها تفحمت وأن الوقت لا يصلح للنوم . مطت شفتيها فى أمتعاض : أبتر . كانت قاسية الملامح بصقت على الأرض : خذوه . سدوا فوهات البنادق نحو صدرى . وخذتنى برودة الصلب فصرخت .

فتحت عينى وشعرت بالصباح على وشك أن يشقشق ، والمكان امتلأ بالبشر ، ولكن غبش الفجر الرمادى لا يبين الوجوه . . أصطدمت يدى بالأجساد من حولى تشاركنى الفرش . كانت لرجال متعيين ، بعضهم يصدر شخيراً مزعجاً ، وآخرين يتقلبون فى أنين خافت . امتدت يدى تسحب الوسادة التى شاركنى فيها شخص لا أعرفه . كان يرتدى بنطلونا غامقا وقميصا فاتحا . لاحظت بطرف عينى ملامحه . تأملت غضون وجهه ، وشاربه الخفيف ، و« حسنة » تعلو أنفه .

تقلب متوجعاً : شاركتك الوسادة دون قصد . ألا تصدقنى ؟

كان يقولها بآلم حقيقى ومفاصله تطلق من التعب . يده فقط كانت تقبض بقوة على مظروفه الأصفر . حاولت أن أقرأ فى الضوء الذى بزغ واهنا اسمه فلم أفلح .

اعتدلت جالسا : عن إذنك . أريد أن أركن دماغى .

رفع رأسه فسحبت الوسادة وطويتها فوق رأسى لأظفر بقليل من النوم . فى تلك اللحظة فقط اكتشفت أنه هو .

البؤبو الملتمع الذى خبا فيه الضوء لبرهة ، وشفقتان مزمومتان وكلمة يكررها بتوجع :

ألا تصدقنى ؟ هزته والأجساد من حولى متناثرة على الطوار ، وتحت أشجار الكافور : ألا تعرفنى .

ومضت فى ذهنى السنوات المريعة ، وعدت لأيام الخندق الواحد . بدا مستسلماً لهزات يدى . صرخت فيه : لم أعرفك فى البداية . لكننى الآن عرفتك !

كانت أقدام غليظة تدوس الأسفلت حذرة حتى لاتطأ النائمين . دعك عينيه وهو يتأملنى : لعلى رأيك من قبل . لكن لا أتذكر أين !

كانت اللحظة قاسية ، فهل ينكرنى عن عمد . قلت له : ضع رأسك على الوسادة يادفعة ! نطق بصعوبة وهو يقاوم النوم : أيام الجيش هى ؟

قلت له أتحسس أيام الزهو واتشمم رائحة البارود : سرية الـم . ط انتفض فجأة وازاح الوسادة : الأومباشى ثروت ؟

تعانقنا ، اهتز جسده وهو يحتضننى ، بينما برد الصباح ينخر العظام وضباب خفيف يضرب وجوهنا . قلت له : معنا شاي فى السيارة .

أمسك بىدى : الأمر لا يحتاج لمشقة . تمسك بمكانك .

كان فوق رأسى مباشرة عمود زبارة مطفاً ، والندى يهبط بغاية الهدوء
فوق أجسادنا . عينان صقريتان لا أنساها . قلت ألومه : كيف حالك
يا زميتى ؟

كانت السماء مكشوفة ، والأبدان قد انتصبت وبدأ النائمون فى
الصحيان . رد بلهجته الطيبة وبتقطيته الأخميمية : كما ترى !

سألته : أهناك أمل أن نحصل على عقد عمل فى الخارج ؟

اقترب من البوابة الحديدية الضخمة بصعوبة ، وأخذ يرمق لوحة
الإعلانات ، بمتنهى اليأس تنهد : إن كان لنا عمر !

هل قصصت على أولادى تلك اللحظة الفاصلة التى نبش بأظفاره
بحثاً عنى ، وانتزعنى من بين سرداب الموت معرضاً نفسه للهلاك ؟

قام ثلاثتنا نطوى غطاء السيارة بعد أن نفضنا التراب ، وأعدنا الوسائد
للمقعد الخلفى . ثم اقتربنا من البوابة بمشقة . اعتصرت بقبضة يدى طرف
ياقتى فى عصبية زائدة مقاوما الزحام . هزنى برفق : إهدأ !

بدأت الشمس تصب نارها فاشتد الزحام ، وارتفعت الأصوات فى
لغط تحولت الأجساد إلى كتلة من البشر بألف ألف ذراع ، يلوحون
بالأظرف الصفراء فى عصبية ، أطل رجل ضخم وقال بنبرة متعالية : نظموا
أنفسكم !

حاولنا جاهدين أن نشكل طابورا دون جدوى . ضحك الزميتى فى
مرارة وقال بصعيدية افتقدتها طويلاً : يلزمنا الصول رفعت !

قلت أجاريه فى مرح مصطنع أطرده به شبح الحزن : سيقودنا بأورنيك
ذنب مشترك .

انتزع من وجوم اللحظة ظل ابتسامة فيما كان الرجل الضخم يحكم إغلاق البوابة بالجنزير . ولقد رأيناه يصعد السلم الرخامى ويغيب لدقائق .

وماهى إلا لحظات حتى أتى عساكر الأمن المركزى فى اللوريات الضخمة . طوقوا الشارع الرئيسى المفضى إلى الميدان ، ولوحوا بخيزراناتهم اللاسعة فى الوجوه المشرّبة . والرجل هبط درجتين وعلا صوته فوق الجميع : نظموا أنفسكم أولا !

أما الأيدى التى كانت تتحرك بالأظرف الصفراء حاملة الشهادات الموثقة وأوراق الخبرة وصحيفة الأحوال الجنائية فقد أرهقت ويدت خرساء . حين أحكم العسكر سيطرتهم على البوابة هبط الرجل وأحاط نفسه باحترام وهيبة وأشار للغفير أن يفتح ..

فى تلك اللحظة توالى ضربات الخيزران على الأجساد فى إيقاع منتظم ، وتسرب عرق مالح إلى حدقة العين فشعرت بألم هائل وتمنيت أن أهرش بإصبعى الصغير فلم أقدر . تعالت الصرخات . كدت أندفع هاربا من ذلك الجحيم ساخطا على الفكرة كلها . تأملنى فى شرود : تحمل يادفعة . هذه المرة ليس بيدى أن أفعل لك شيئا .

فى العودة من مهمتنا الخطرة جرحت ساقى إثر ارتطامى بوتر خشبى . رحت أعرج . قال لى أن على أن اكتم إلى مهما كلفنى الأمر ؛ فعودتنا بجهاز اللاسلكى وبمعلومات دقيقة عن المواقع المتقدمة لقواتهم ونظم التسليح وتوزيع عربات الحملة أمر مهم .

كدت أسأله محتجا من أين أتى بتلك القدرة على تحمل العطش والسير لمسافات طويلة فى أرض هشة من الكثبان الرملية ؟ واصلت الاستناد إلى كتفه حتى التقطنا عربة جيب الصاغ عبد الحى .

نظرت إلى الأسياخ الحديدية أنتى تتقاطع مع قوائم عرضية للبوابة
الضياء . قلت والزحام يطبق على صدرى : لقد هجر العساكر الدية
يازميتى !

اكتفى بالتحديق فى الفضاء ، عيناه ترتعشان بأنين خافت ، فجأة هز
رأسه وهو يتلقى خبطة عشوائية على كتفه بقايش غليظ ، بينما إرتطام
جسده بالسور يصل إلى مكتوما : عرفت منك ذلك .

صرخت به وأنت نائم يا أومباشى ثروت!

هل كانت دمة ذرفت عيني أم خيط من عرق مالح تسيل للجفون ،
قلت بأسى :

فى الدية رأيت نوارس البحر تبكى . لقد اشتاقت لرائحة البارود القديم!

عودة المحارب

دفنوه تحت شجرة الجميز العتيقة . أنا رأيتهم بملابسه رأيتهم يدفنوه .
أهالوا التراب على جثته . سوت أيديهم الأرض ، وبعد أن أنهوا وقفوا يكون .
وعلى فرع شجرة الزيتون القريبة حط غراب كالح اللون ، صاح :
غاق ، غاق فى الخلاء : غاق .. غاق .. غاق .
كانوا خمسة ، وساد سهم صمتهم . وحركة أقدامهم كانت منضبطة .
لم يقرأوا شيئا من القرآن . كان المطر ينهمر مدرارا ، والرعد يقصف
فيحتوى البيوت فى عباءة فزع لاهث .

حين انصرفوا تركوا الليل ممزقا ومرتعدا . أتت تتلفت حولها فى فزع .
كانت ترتدى الجلباب الأسود الشرقاوى ، وتضع فوق شعرها طرحة بللها
المطر الساقط .

راحت تتحجب وهى تستند بيدها على الجذع العتيق ثم أخرجت من
سلتها الخوصية شاكوشا وراحت تدق مسمارا أمسكته بطرفى أصبعيها بعد
أن انغرس لفت خصلة شعر ، وجذبت الرأس فجأة صرخت وكان الخلاء
موحشا جرت نافرة فى اتجاه الجسر الترابى . انخلع الخلاء من قدميها ،
تركته بعد أن نظرت فى ساعة يدها مرتعبة وفرت حافية .

احتجب القمر خلف سحابة رمادية داكنة ، جاء الولد حاملا سعف
النخيل انحنى بجذعه واضعا مابيده فوق الحفرة التى سوت أيديهم ترابها
راحت شفتاه تتمتم بادعية يلقيها بنبرة خاشعة ثم أنه مد يده وبين أفرع
الشجرة المتدللة انتقى موضعا وضع أنية بها حنطة وكوبا ممتلئا بالشعير حتى

حافته وقطعا من الصلصال المحروق على هيئة الراقد تحت الثرى لا يبصر!

حين برز القمر ، وتبددت السحب راح يهرول فى الاتجاه العكسى
للجسر ثم اختفى بجسده النحيل فى حقل الثوم القريب وقفت عربية
(جيب) أمام الشجر قفز من جنب السائق ضابط يرتدى الكاكي كان محرك
العربة مازال يدور .

خلع كابه وأشار بيده فبرز من المقعد الخلفى أومباشى راح ينفخ فى
البروجى نوبة رجوع . . وماكاد ينتهى حتى اندفعت ارتال السيارات وهبط
الجندى فى الساحة .

اصطفوا خلعوا السناكى وثبتوا البنادق فى أكتافهم وأطلقوا إحدى
وعشرين طلقة . ومضوا .

كف المطر ، ماعاد أحد يأتى تقلبت فصول ، رف طير واختفى .
تعالى أنين وخفت . . ماعاد أحد يأتى . غراب راح يقترب من
الأشجار حائرا ، ثم فى صراخ ملتاع هوى ميتا .

رويدا رويدا غمر المكان ضوءا أصفر هائلا . . ذرات التراب المعلقة فى
الفضاء كان يمكنك أن تراها بكل الوضوح .

تحركت الأرض الموحلة شق جسده الطين بعوده الفارع انتصب واقفا
نفض بيده معلق بثيابه ووجهه تناول حبات الحنطة ثم أنه اغتسل فى النهر
قبل أن يواجه المدينة بعودته المفاجئة مرتديا أفروله الكاكي وحاملا بندقيته
مشرعا السونكى فى الوجوه المرتعبة !

المحتويات

- ١ - قرنفل للرحيل .. خوذة نشرت بمجلة النصر ، ومجلة تأصيل .
- ٢ - أحزان الولد شندی . نشرت بمجلة النصر .
- ٣ - العصا والخوذة . نشرت بمجلة الثقافة الجديدة .
- ٤ - النحسب . نشرت بمجلة النصر .
- ٥ - أيام الزهو الرمادية . نشرت بمجلة النصر . جريدة اليوم
- ٦ - ٢٤ ساعة . نشرت بمجلة النصر .
- ٧ - الكودي ٢٨ نشرت بمجلة النصر .
- ٨ - كيف يحارب الجندي بلا خوذة ؟ نشرت بمجلة الشباب .
- ٩ - في البدء كانت طيبة . نشرت بمجلة صباح الخير
- ١٠ - سقط في الثانية صباحاً . نشرت بمجلة الثقافة الجديدة .
- ١١ - حبة الجوافة . نشرت بجريدة اليوم
- ١٢ - جندي الإشسارة . نشرت بجريدة اليوم
- ١٣ - نوبات الراحنة . نشرت بجريدة اليوم
- ١٤ - المجذوب .
- ١٥ - القسار .
- ١٦ - رائحة بارود قديم .
- ١٧ - عودة المحارب . نشرت بجريدة المساء

صدر للمؤلف

* قصص وروايات .

- رجال وشظايا (رواية) - أدب أكتوبر - ١٩٩٠
- خوذة ونورس وحيد (مجموعة قصصية - ٢٠٠١

* شعر

- الخيول (شعر عامية) ١٩٨٢
- ندهة من ريحة زمان (شعر عامية) ١٩٩١
- ريحة الحنة (شعر عامية) ١٩٩٨
- نتهجى الوطن فى النور (شعر عامية) ٢٠٠٠
- سجادة الروح (شعر عامية) ٢٠٠٠

* تبسيط ومراجعات

- الحكيم وحمارة (سلسلة عين صقر) ١٩٩٩

* حوارات صحفية

- مواجهات (مجموعة حوارات) ٢٠٠٠
- تقاطعات ثقافية (مجموعة حوارات) ٢٠٠١

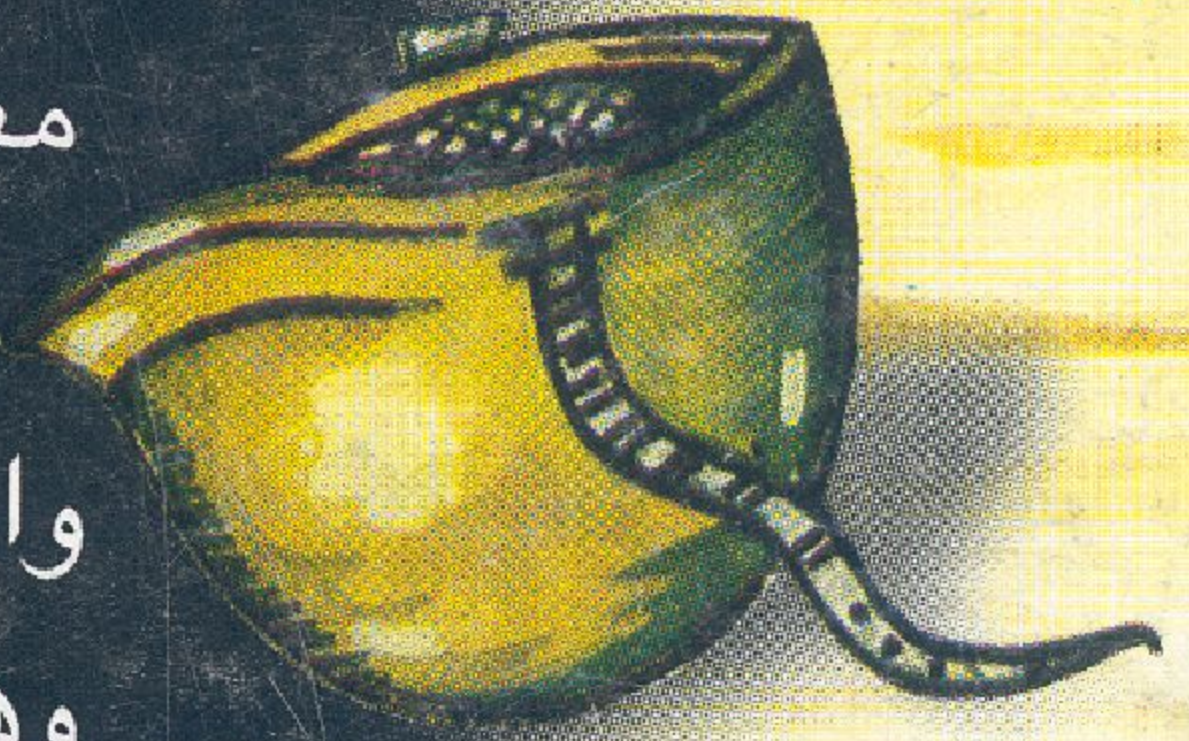
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧٣٧٧ / ٢٠٠١

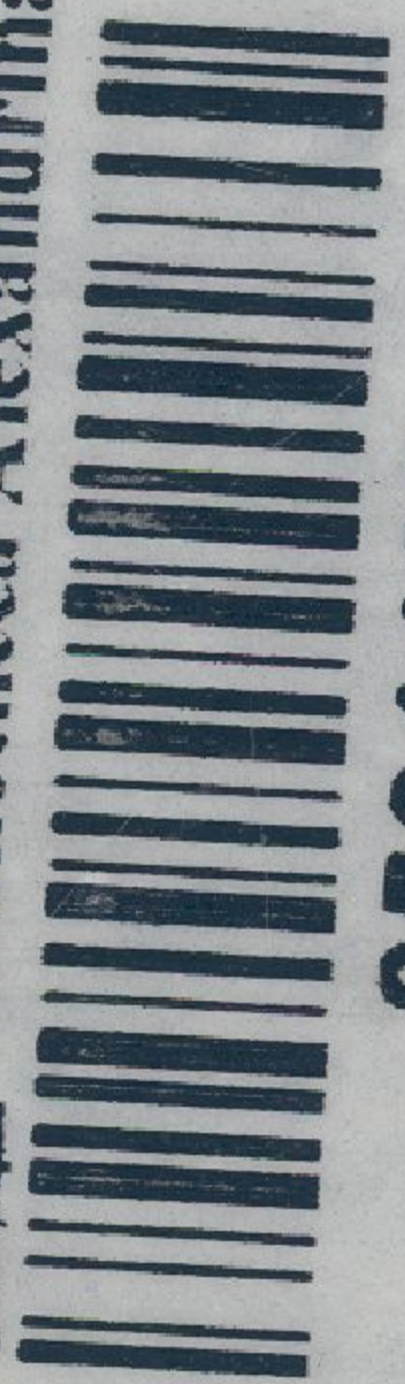
«كيف يحارب الجندي بلا خوذة؟» مجموعة قصصية
تعبر بجلاء عن فكرة الحرب . فهي لا تعنى الضجيج
الذى يواكب لحظات الصراع الضارى مع العدو ، بل
تمتد إلى اللحظات المضمرة فى ضمير المقاتلين ،
وتتجه إلى كشف المسكوت عنه فى حياة هؤلاء الرجال
الذين اصطفاهم الموت فى حفرهم البرمالية .

فى لغة شفيفة ، وأحداث كاشفة يعمق الكاتب
من فكرة البعد الكامن فى خلفية المشهد عبر سرد
يتميز بالرهافة والشاعرية أحياناً ، لتقدم لك تلك تلك
المجموعة شهادة دالة عن آلام وأحلام المحاربين فى
معارك أكتوبر ١٩٧٣

إنها بحق لوحات واقعية للحظات المواجهة مع العدو ،
والمواجهة مع النفس لتبرز البطولة بمفهوم شعبى ،
وهى أن يحمى المحارب ظهور من يعيشون فى قلب
الوطن بعيداً عن خنادق الحرب وشظاياها المميتة !!



Bibliotheca Alexandrina



0564406